

عندما يطغى النساء

عبد الحميد ضحا

هذه الرواية :

حقوق المرأة أصبحت كلمة تُرتكب بها كل الموبقات يُدعى بها لحرية الشذوذ والعري والفجور وتدمير الأسرة بل واضطهاد المرأة نفسها.

ولذلك وصف الروائيون الملتزمين بالإسلام بالتطرف والرجعية ويشاركون في الحرب عليهم واضطهادهم.

لهذا قررت خوض غمار الرواية مترجلاً عن فرس الشعر قليلاً للدفاع عن هؤلاء الذين اعتبرهم منارًا للبشرية ومع ذلك يذوقون الظلم والاضطهاد ألوانًا.

عندما يطغى النساء
عبد الحميد ضحا

عندما يطغى النساء



عبد الحميد ضحا

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: [illegible]
42 Opera Square - Cairo Tel: [illegible]

عندما يطغى النساء

عبد الحميد ضحا

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨
البريد الإلكتروني e.mail: adabook@hotmail.com

Editions Al-Adab 1923
42 Opera square - Cairo – Egypt

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
مكتبة الآداب

الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عنوان الكتاب: عندما يطغى النساء
شعر: عبد الحميد ضحا
رقم الإيداع: لسنة
الترقيم الدولي: I.S.B.N. 978

مكتبة الآداب
(علي حسن)
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) —
e-mail: adabook@hotmail. com

الإهداء

إلى كل مسلمة اضطهدت وعذِّبت،

أو منعت من دراستها بسبب التزامها بأوامر ربها

أهدي هذه الرواية

عندما يطغى النساء

وصل عماد في موكبه.. رئيس الجامعة وعمداء الكليات والدكاترة – المستأنسون – يستقبلونه بسلام حار، كلٌّ منهم يُسِرُّ في نفسه أملاً أن يتعرف عليه ابن السيد شكري العسال، الرجل القوي – أو أقوى رجل – في الدولة، فينتشله من عذابات الدراسة والعلم، إلى جنة النفوذ والسياسة والغنى الفاحش، يكاد أحدهم يقع على الأرض من مبالغته في الانحناء وهو يسلِّم عليه، وربما ظن من يرى المشهد أنهم يقبّلون يده.

أراد شكري العسال أن يحصل ابنه عماد على الدال نقطة؛ من أجل «البريستيج»، خاصة أن ذلك لن يكلّفه شيئًا إلا الاتصال برئيس الجامعة، والطلب منه – وطلبه أمر – بإنهاء هذا الموضوع – الدكتوراه – بسرعة.

سار عماد والجميع يلتفُّون حوله في نصف دائرة كأن مهندسًا رسمها، هو أعلى نقطة فيها، يتحدث عماد مع رئيس الجامعة – الذي يتأخر عنه خطوة – عن ذكرياته أيام كان طالبًا، وأن مباني

الجامعة كما هي لم يحدث فيها أي تغيير، غير طلائها حديثًا والزهور، والذي لم يكن يحدث لولا حضوره للجامعة.

أثناء سيره في الجامعة لاحظ عماد أن هناك تجمعًا من الطلبة والطالبات.. حاول الوفد المرافق أن يسلك طريقًا آخر، ولكنه طلب – من باب حب الفضول – أن يرى من هم؟ ويسترجع ذكريات الجامعة، وحماس الشباب.

وقف يستمع فإذا فتاة تخطب في مجموعة من الطلبة والطالبات.. لم يفهم شيئًا من كلامها إلا بعض العبارات المشهورة مثل المجتمع الذكوري وحقوق المرأة واضطهادها، ومساواتها بالرجل، وباقي الكلام الذي يملأ الفضاء الإعلامي، ولاحظ من أسلوب هذه الفتاة أنها متحمسة جدًّا لآرائها؛ بل متعصبة.

أما الشباب الواقفون والفتيات، فبين منصت ومستهزئ، وغامز ولامز.

دخل عماد في حوار معها: ممكن أسأل سؤالاً يا آنسة: ما درجة المساواة بين الرجل والمرأة التي تريدينها يا.... ما اسمك؟

أحسّت بشيء من النشوة المشوبة بالغرور أن يسألها عماد ابن شكري العسال عن اسمها: اسمي عصمت جلال.

عماد: ما هي هذه المساواة التي تريدينها يا عصمت؟

عصمت: المساواة في كل شيء: الزواج، الطلاق، الميراث... كل شيء.

عماد: ولكن أليس لكل جنس خصوصيات؟

عصمت: هذا الكلام لا يقال إلا لتقنين التمييز بين الرجل والمرأة.

عماد: أليس هناك خصوصيات؟

عصمت: الخصوصيات ليس لها شأن بالتمييز والاضطهاد الواقع على المرأة في هذا المجتمع الذكوري.

– إذًا؛ يجب أن يكون ما تطالبين به هو عدمَ التمييز والاضطهاد لا المساواة، وتوقعين نفسك في مخالفات دينية وفطرية!

قالها عماد وهو يبتسم من عبارة «المجتمع الذكوري»، وكأنه يسمعها لأول مرة، مع أنه سمعها وقرأها كثيرًا؛ ولكن خروجها من فم عصمت مع حماسها وتعصُّبها جعل للكلمة مذاقًا آخر.

– عمومًا ربما كان لنا حوار آخر لأني مشغول الآن.

سار عماد مبتسمًا، وأحس أن قلبه يتحرك؛ ربما إعجابًا بعصمت وحماسها، وربما أمر آخر.

شرح لعماد رئيس الجامعة ومساعدوه خطة إعطائه درجة الدكتوراه، بتقديمه دراسات عليا، ويشرف عليه الدكتور الذي يختاره هو، والدكتور سيتولى الأمر برمّته، وعليه أن يعتبر نفسه دكتورًا من الآن، ولو شاء لأعطوه الدكتوراه الفخرية اعترافًا بفضل شكري باشا على الجامعة والبلد.

عماد: لا لا.. لا نريد غمزًا ولمزًا، وأبي يعِدُ حضرتك بدعم كبير للجامعة هذا العام، وهدية قيمة.

رئيس الجامعة: شكري باشا عوّدنا على كرمه، ولا ندري كيف نرد له هذا الكرم؟

* * *

شكري العسال.. الرجل القوي في الدولة.. كالأخطبوط كل يد تمسك مفصلاً من مفاصل الدولة.. تجاريًّا يحتكر السلع الإستراتيجية.. صناعيًّا يحتكر مصانع المواد الإستراتيجية.. زراعيًّا يسيطر على كمية من أراضي الدولة تعادل مساحة دولة صغيرة.. سياسيًّا له علاقاته الخاصة بكثير من دول العالم، ويحصد من خلالها توكيلات تجارية عالمية في الشرق الأوسط.. رضاه ربما فاق عند

المرضيّ عنه رضا رئيس الدولة نفسه، وكذلك سخطه، وما أدراك ما سخطه؟!

عنده من الأولاد: عماد ابنه الكبير، وهناء الوسطى، وشيرين الصغرى.

منذ أن دخل معه عماد ابنه في مجال العمل، أصبح يده اليمنى، وعلّمه كل صغيرة وكبيرة.

أصبح همّ شكري العسال الأول ضبط الأمور لابنه عماد؛ خاصة بعد أن أصابه مرض لعين يوشك أن يقضي عليه، وأهم شيء الآن تزويجه فتاة من أسرة كبيرة ومحترمة.

بدأت أم عماد في حصر بنات العائلات الكبيرة، اللاتي تتوفر فيهن الشروط، وعرضها على عماد.

يبدو أن عمادًا سقط في بئر الهوى، فمنذ حواره مع عصمت لم تفارق صورتها مخيَّلته، وأسرَّ في نفسه ما سيعلنه لوالدته عند أخذ القرار.. وكان قد جمع معلومات وافية عن عصمت من خلال سكرتيره.

أم عماد: هل استقر رأيك يا عماد على واحدة؟

عماد: نعم يا أمي - وهو يقبِّل يدها - ولكنها خارج المجموعة

التي أعطيتِنيها.

أم عماد: يا لك من فتًى شقيّ! تبحث من ورائي! عمومًا من هي؟ فإن كانت مناسبة فبها ونعمت.

عماد: اسمها عصمت جلال.

أم عماد: من عصمت جلال؟ بنت من؟

عماد: بنت ليلى البدري.

أم عماد: ليلى البدري ناشطة حقوق المرأة؟! يا نهار أسود!! يا ابني هذه المرأة تكره الرجال، وأخشى أن تكون ابنتها مثلها، فتجعل حياتك جحيمًا.

واستطردت: يا ابني، ليلى نشيطة جدًّا، وإن كان الغرب معجبًا بها، ولها حضور في المؤتمرات الغربية ومشهورة هناك، إلا أن لها آراء متطرفة بالنسبة لمجتمعنا، وتعيش كأنها في معركة دائمة مع الرجال، وتزعم أنها تريد أن تقضي على سطوة الرجال.

عماد: ربما أنها تعرّضت لظلم زوجها كما تحكي.

أم عماد: ولكن يا ابني هذه المرأة متعصبة جدًّا، ولا يحبها أحد، ولولا حضورها في المؤتمرات الغربية وإعجابهم بها، لما نالت شهرتها تلك.

عماد: لا تقلقي يا أمي، وأنا أستطيع التعامل معها، وأنت معي؛ فلا يهمني شيء.

أم عماد: ولكن أين عائلة أبيها؟

عماد: لقد مات أبوها وهي صغيرة، والعلاقة منقطعة فهي لا تعرف عنهم شيئًا، فلا داعي للتعرض لذكر والدها إلا في أضيق حدود.

أم عماد: أخشى أن تكون نظرتك لها بمرآة الحب العمياء، وكما يقول الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَــنْ كُـــلِّ عَيْبٍ كَـــلِيلَةٌ
وَلَكِــنَّ عَيْــنَ السُّخْطِ تُبْــدِي المَسَاوِيَا

عماد: لا تنسَي أن عصمت ستكون واجهة إعلامية جيدة، ونشيطة في مجال حقوق المرأة، وواجهة ممتازة أمام الغرب، وهذا يفيد استثماراتنا في الخارج.

أم عماد: كما تحب يا بني.

* * *

يتقدم عماد رسميًّا لخطبة عصمت.

ليلى: ما رأيك يا عصمت؟

عصمت: أظن أنه مناسب.

ليلى: لولا المفاسد لرفضته؛ حتى يقال: رفضت ابن شكري العسال.

عصمت: لك أفكار مجنونة يا ماما.

ليلى: أنا أتلذّذ بقهر الرجال.

عصمت: وهذا الأمر بسبب تسلُّط أبي عليك فقط؟

ليلى: يا بنتي هذه طبيعة الرجل؛ التسلط والتلذذ بقهر المرأة، فهو يعتبرها عدوًّا له، ويعلن الانتصار عندما تخضع له، ولم أجد رجلاً يخرج عن هذه الطبيعة، كلهم كذلك، وفيهم عشق الخيانة، كان أبوك كل ما يريده مني الخضوع له؛ ألبس كما يريد، أخرج كما يريد، لا يدخل البيت إلا من يريد، أنام كما يريد، أستيقظ كما يريد!

تخيّلي قابلت مرة زميلاً لي فسلّمت عليه، وكنا بجوار سكني، فدعوته لزيارتي، وأتى أبوك من العمل، دخل فوجده جالسًا في الأنتريه، جنَّ جنونه، وقام بطرده من الشقة، كان رجلاً رجعيًّا متخلفًا، أحرجني أمام زميلي!

عصمت: وهل استسلمت له في هذا الموقف؟

ليلى: أنا لم أستسلم قط في حياتي، انتظرت حتى أتى أخوه، فقمت بطرده من الشقة أمامه.

عصمت: صعب جدًّا ما فعلتِ يا ماما!

ليلى: وليس صعبًا أن أكتشف خيانته.. إنه خائن، ولكن للأسف اكتشفت ذلك بعد ما مات.. مات في أحضان جارتنا وكانت فضيحة، وهكذا هم الرجال خونة.

عصمت: كثيرًا ما يسألني زملائي عن أبي، ويحرجونني.

ليلى: يا بنتي، أنت لا تحتاجين إلى ذكر أبيك في شيء، يكفي أن أمك ليلى البدري.

* * *

يذهب عماد لزيارة عصمت في فيلا أمها، بعد تحديد موعد معها، يدخل الفيلا وكأنها قصر، يعجب عماد من أين أتت ليلى البدري بهذه الأموال؟! وأسرَّ هذا الأمر في نفسه حتى أتت الفرصة وانفرد بعصمت، فسألها عن عمل والدتها.

عصمت: هي ناشطة في مجال حقوق المرأة.

عماد: ولكن أليس هذا عملاً تطوعيًّا ليس له مقابل؟

عصمت: هناك مكافآت، خاصة عند حضور المؤتمرات، وعند إعداد تقارير عن وضع المرأة واضطهادها، وأيضًا عند تحقيق مكاسب للمرأة.

عماد: أنا أعرف أن موضوع حقوق المرأة «بزنس» كبير – ينظر في نواحي الفيلا – ولكن لم أكن أتصور أنه بهذه الطريقة، أظن أن المكافآت تقدر بملايين الدولارات.

عصمت: حسب المكتسبات والمؤتمرات.

عماد: ولكن لماذا تكرهون الرجال؟

عصمت: نحن لا نكرههم؛ إنما نكره أفعالهم وتسلُّطهم على المرأة، ورغبتهم في قهرها؛ فالمرأة عندهم أداة مُجرَّدة للمتعة الجسديَّة في يد الرجل، ويقهرها متى شاء، وهي آلة لتفريخ الأولاد وتكثير النَّسْل.

عماد: وهل معنى ذلك أن تناطحه ندًّا بند، تَسْمُتُ سَمْتَه في كلِّ ما يأتي ويَذَر، وتجاريه في كلِّ مضمار، وتلاحقه في كلِّ مَيدان؟! فهل الرجل والمرأة عدوان أو يكمل كل منهما الآخر؟

عصمت: إذا كانا متفاهمين فقط، ويعرف الرجل أن المرأة

إنسان لها مشاعر.

عماد: وهل كان والدك بكل هذه القسوة التي تتحدث عنها والدتك؟

عصمت: نعم، وأكثر من ذلك.. آهٍ لو تسمعها وهى تحكي عن عذابها معه!

عماد: هل رأيتِه يا عصمت؟

عصمت: مات وأنا في السادسة من عمري.. أتذكّره كطَيْف، وأحيانًا يأتيني في المنام يقول كلامًا لا أفهمه.

عماد: هناك مثلٌ يقول: «إذا أتاك من يشتكي خَلْعَ عينه، فانظر إلى الآخر فربما الشاكي خَلَع عيني المَشْكوّ منه الاثنتين».

عصمت: ماذا تقصد؟

عماد: أقصد أن الحقيقة ليست بالضرورة هي التي تبدو أمامنا.

عصمت: هل هذه فلسفة؟

عماد: هذه حكمة تعلمتُها من الحياة.

* * *

شكري العسال في اجتماع عائلي، يتحاورون في موضوع

المناسبة السعيدة؛ خطوبة عماد.

شكري: يا عماد يا ابني، والله أنا لا أعلم كيف ستناسب هذه المرأة؟! إنها قتلت هرمونات الأنوثة فيها، إنني أرى أن «سُمْعَة الأَقْرع» فيه أنوثة عن هذه المرأة، وهي تذكّرني بأمّنا الغُولة التي كانت تخوّفني بها أمي وأنا طفل - يضحك الجميع - وهي مغرورة، وتكره الرجال، وأخاف أن تكون ابنتها مثلها.

هالة: يا أبت، هذه المرأة شكلها غير مقبول، وأحس بانقباض عندما أنظر إليها بشعرها الأبيض المنكوش، ووجهها المملوء غرورًا، ولا أعرف كيف تزوجت؟! ولكن يبدو أن بنتها عصمت تشبه أباها.

شكري مداعبًا: ألم أقل لك: أبوها فيه أنوثة عن أمها؟!

(يضحكون).

شيرين: ولكن العروس شكلها جميل، وإن كان هناك من هي أجمل منها وتشرّفنا، ولكن يبدو أن الأمر كما قال الشاعر:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى   فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

أم عماد: انتهى الأمر وخطبناها، وليس هناك داعٍ لهذا الكلام.

عماد: لو كان الأمر لا يعجبك يا أبي، أنهي الخطوبة.

شكري: لا يا عماد؛ إنك لا تعرف مدى فرحة أصدقائنا في الغرب بهذه الخطوبة، ومنظمات المرأة في الغرب ستكون لك عضدًا، وستقف بجانبك بنفوذها، ويكفي أن أمَّها أمنا الغولة، أقصد ليلى البدري.

* * *

تم الزواج بمجرد حصول عصمت على ليسانس آداب فرنسي، وسافر عماد وعروسه إلى فرنسا لقضاء شهر العسل.

بعد يومين مرض شكري العسال، فعاد عماد وعروسه بسرعة.

دخل عماد غرفة أبيه.

أبوه مستلقٍ على السرير وحوله قيادات الدولة وكبار البلد..

سلَّم على أبيه.

شكري: حسنًا، لقد جئتَ يا عماد في الوقت المناسب.. هؤلاء كبار البلد، وقد أقسموا لي أنهم سيقفون بجانبك، ولن يتغير أي شيء إذا وافتني المنيّة.

عماد: يا أبي لا تقل هذا، إنه مرض وستشفى مثل كل مرة.

شكري: يا ابني، الأطباء أكدوا أنني اقتربت من النهاية، وأهم

شيء الآن ضبط الأمور حتى لا تتعرض أنت وأمك وأختاك لأي أمر سيئ، وأوصيك بهن يا بني؛ فليس لهن أحد غيرك.

مات شكري بعد ثلاثة أيام، وورث عماد شكري إمبراطورية أبيه، وصار الأخطبوط الجديد.

* * *

دخلت ليلى البدري قصر شكري العسال؛ لتعيش في جناح منه، بعد طلب عصمت من عماد، واستشارته والدته التي وافقت بعد إلحاح من عماد، وخوفٍ من شخصيتها غير المتوافقة معها.

منذ أول يوم لليلى البدري في القصر، أخذت تخطّط للسيطرة على إمبراطورية العسال.

تحدّثت ليلى مع ابنتها عصمت عن أنها يجب عليها أن تكون السيدة الأولى في القصر، وصاحبة الكلمة الأولى فيه.

أعربت عصمت عن مخاوفها من عاقبة التحدث في هذا الموضوع، وحذّرت أمها من الاصطدام بأم عماد وأختيه.. قالت عصمت: «أنا لا أحب أن أغضب حماتي، وهي تعاملني كابنتيها، والبنتان في غاية الطيبة»، فطمأنتها أمها أن لها طرقها الخاصة،

وسيؤول الأمر إليها قريبًا.

أخذت ليلى تدرس الوضع في القصر، وتقرِّب العاملين فيه إليها، وتعطيهم وتعِدهم بالمكافآت والهدايا.

سافر عماد في جولة خارجية لمتابعة الاستثمارات الخارجية.. بعد سفره سقطت والدته على الأرض وأغمي عليها، ثم اشتد المرض عليها.

عاد عماد بسرعة، فأتاه نبأ وفاتها وهو بالطائرة.

كانت صدمةً عنيفة لعماد، خاصة أن والدته كانت تتمتع بصحة جيدة.

حاولت عصمت مواساته، وتذكيره بأن الموت ليس له مقياس.

هنَّأت ليلى ابنتها التي صارت السيدة الأولى في القصر دون منافس: ألم أقل لك يا عصمت أنه سيؤول إليك قريبًا؟

عصمت: يا ماما، لا تقولي هذا الكلام حتى لا يشك فيك أحد.

ليلى: لا أحد معنا هنا، ولا تقلقي، كل شيء سيكون على أحب ما يكون لنا، وعلينا الآن العمل بسرعة لإبعاد أختيه عنه؛ حتى لا يكون له صدرٌ حنون إلا أنت.

عصمت: كيف ذلك، وهما شريكتان لعماد، وهو واحد وهما اثنتان، فله نصف أسهمهما؟

ليلى: لا؛ بل سيرث مثلهما، فالبنت لها نصف الابن، في قوانينهم العقيمة.

عصمت: ولكن لا بد أن نقنعه أن يرث مثل البنت حتى لا نتَّهم بأننا ننادي بتطبيق ما لا نطبّقه نحن، وأولاً وأخيرًا هما أختاه.

ليلى: هل جُننت؟! كيف ترث مثله؟! أتريدين أن تضيعي من يديك مليارات الجنيهات؟! لو أتيت للحق، المفروض ألا يرثا إلا نسبة قليلة؛ فعماد هو من تعب في تكوين هذه الثروة مع أبيه، وبأي حق يرثان ضعف نصيبه وهما لا عمل لهما إلا التمتع بثروة أبيهما وعماد؟!

عصمت: عجبت لك يا ماما، هل نمنعهما من الميراث مثل الجهلاء الذين يضطهدون المرأة؟!

ليلى: الموضوع ليس كذلك، أنت تفهمين خطأ، دعيني أدبّر الأمر، ولا تشغلي نفسك، فالمطلوب الآن إخراجهما من القصر، وهذا أمر يسير، هو مشغول جدًّا، وهما خطَّابهما كثيرون، وسأسعى في تزويجهما على أن يُخصم تجهيزهما من ميراثهما؛ حتى

يخرجا من القصر، ويصبح ملكًا لنا وحدنا.

تتزوجان، مع أنه لم يمضِ ثلاثة أشهر على وفاة الأب والأم؛ بدعوى أن هذه أفكار رجعية متخلفة، والحزن في القلب، لا بهذه الأمور التي تعطل حياة الأحياء.

ينجح مخطط ليلى، ويخلو القصر لها ولابنتها عصمت.

* * *

استفادت عصمت وأمها ليلى البدري من وضع عماد، وصارت عصمت - بمساعدة والدتها - السيدةَ الأولى في مجال حقوق المرأة، وتجمّعت في يدها خيوط كل منظمات حقوق المرأة، وأخذت تسافر كرئيسة لأي وفد يشارك باسم مصر في المؤتمرات الدولية.

أظهرت عصمت استجابة كبيرة لقرارات مؤتمرات المرأة، حتى تلك التي ترفضها وتعارضها دول الشرق، وصار هناك هجمة شرسة في الإعلام ومن رجال الدين على هذه المؤتمرات المشبوهة، من وجهة نظرهم.

أبدت منظمات المرأة العالمية تأييدها لعصمت وأنها ستقف

وراءها؛ لما رأت من قناعتها وتأييدها لكل ما يُعرض، دون التعلل بحجر العثرة الدائم أمام هذه المنظمات: خصوصية المجتمعات الشرقية، واستمساكها بالدين، والعادات، والتقاليد...إلخ.

انهمرت المعونات على الحكومة كالسيل، حتى عجب خبراء الاقتصاد من كمٍّ هذه المعونات وزيادة حجم الاستثمارات الغربية، حتى أصبح النمو الاقتصادي أعلى معدل نمو في العالم.

وصلت الرسائل جليّة للحكومة والمسؤولين: لا بد من تطبيق القرارات والأجندة المتفق عليها مع وفود المرأة برئاسة السيدة عصمت؛ حتى يظل حجم المعونات والاستثمارات كما هو، وإلا سينهار كل شيء.

حدث حوار بين بعض المسؤولين والسيدة عصمت:

مسؤول كبير: أخشى أن يؤدي تطبيقها إلى خلخلة واضطراب في المجتمع، وأنت ترين حجم المعارضة لهذه القرارات في الإعلام.

عصمت: مادام الاقتصاد قويًّا، والحالة المادية مرتفعة، فالناس ليس لهم حجة، وسيخشون أن تذهب هذه النعم عنهم.

- ولكن أخشى أن يحدث العكس؛ فالناس حين يجوعون يظل همُّهم محصورًا في البحث عن الطعام، أما إذا شبعوا، فسيأخذون في

التفكير والاختلاف، بل ومعارضتنا.

- تقصد أن لا ننفّذ ما اتفقنا عليه في المؤتمرات، وبالتالي يتراجع حجم الاستثمار والمعونات.

- لا طبعًا؛ هذا يستحيل الآن بعد أن أصبحنا قوة اقتصادية قائمة على المعونات والاستثمار الخارجي، وبعد أن رأى الناس ارتفاع مستواهم المعيشي.

- إذن؛ دعوني أتصرف في هذه الأمور.

- افعلي ما تشائين؛ ولكن بهدوء، ودون إثارة قلاقل ومعارضات.

- طبعًا.

* * *

كانت نصيحة أمها أنها لا بد أن تسيطر على فئتين مهمتين، هما الإعلام ورجال الدين؛ حتى تنفذ قرارات المؤتمرات دون معارضة من المجتمع الذكوري المتخلّف.

بالنسبة للإعلام فالأمر يسير جدًّا؛ فكثير من الإعلاميين يبيعون قلمهم، وأما من يتحدث من خلال قناعته وضميره،

فمجموعة تعدُّ على أصابع اليد، وهم معروفون بالاسم، وأصواتهم تغرق وسط البحر الإعلامي، فلا تأثير لهم البتة.

والباقون نشتريهم بسهولة، وكذلك نجعل بعض الشباب من المتحمسين لأفكارنا إعلاميين كبارًا من خلال تسليط الضوء عليهم.

عصمت: ولكن ظهور تأييد الإعلام بهذه الصورة، وانقلابه مرة واحدة، أليس في ذلك ريبة؟

ليلى: أنت ما زلت لا تدركين أصول اللعب، لا يعني أن الإعلامي يعارض الحكومة، ويحاربها في كل كلمة هو كذلك في الحقيقة؛ بل هو يفعل ذلك حتى ينفّس عن الشعب، ويُظهر أن هناك حرية رأي، وعندما يشار له بالإصبع، يخرّ راكعًا بل ساجدًا، والمعارضون الحقيقيون معروفون بالاسم كما قلت لك.

وعلى ذلك؛ سنجعل مجموعة من الإعلاميين يحاربوننا بشراسة، وفي وقت تنفيذ ما نريد سيظهرون أنهم اقتنعوا وأنهم كانوا متأثرين بالتقاليد والأفكار الرجعية.

عصمت: أنت داهية يا ماما.

ليلى: هذه هي السياسة يا عصمت.

عصمت: والجانب الديني؟

ليلى: هناك حكاية شهيرة توضح لك الأمر: يحكى أن رجلاً ذهب ليستفتي شيخًا، فقال له: إن الكلب بال على الحائط، فقال الشيخ: يُهْدم الحائط، قال: يا شيخ إنه بيتي، قال: يُهْدم الحائط، قال: إنه الحائط الذي بين بيتك وبيتي، قال: قليل من الماء يطهّره – تضحكان – وهذه النوعية من المشايخ موجودة بكثرة، ودورنا هو إبعاد المشايخ المتزمتين، وكبح جماحهم، وتضييع أصواتهم، ومن ثم جعل المشايخ المنفتحين الذين يساعدوننا في مراكز القرار والظهور الإعلامي.

وسأختار لك ثلاثة: شيخ للأزهر وهو الشيخ سلامة، والمفتي الشيخ علوان، وشيخ من وزارة الأوقاف الدكتور مروان، وسيكونون رهن إشارتك.

عصمت: ولكن كيف سيؤيدوننا في المواضيع الشائكة مثل الميراث والحرية الجنسية للمرأة.

ليلى: دعي كل شيء لحينه ولا تتعجلي؛ فإنهم لا يعجزهم شيء.

عصمت: ولكن هناك أمور تذكر في المؤتمرات ولا أفهمها

جيدًا، وأوافق عليها حتى نتقدم على الدول الأخرى في مجال المرأة.

ليلى: مثل ماذا؟

عصمت: مثل الجِندر، والمساواة المطْلقة بين الرجل والمرأة، ومعلوم اختلاف الصِّفات البيولوجية والفسيولوجية لكلٍّ منهما، وهي صفات واضحة وثابتة، ولا يمكن العبثُ بها، ولا يعقل هذا!

ليلى: لا يعقل يا حبيبتي أن تصلي إلى هذه المرتبة في مجال حقوق المرأة ولا تفهمين الجندر، وإنهم يعقدون الآمال عليك لإقرار ذلك، عمومًا سأشرح لك الموضوع بسهولة.

ظهر مصطلحُ «النوع الاجتماعي»، أو الجندر في السبعينيات مِن القرن العشرين، ومفهوم الجندر Gender كلمة إنجليزية تنحدر من أصل لاتيني، وتعني في الإطار اللغوي Genus ؛ أي: (الجنس من حيثُ الذكورة والأنوثة)، وإذا رأينا ما ذكرتْه (آن أوكلي) التي أدخلتِ المصطلح إلى عِلم الاجتماع، سنجد أنَّها توضح أنَّ كلمة Sex؛ أي: الجنس، تشير إلى التقسيم البيولوجي بين الذكر والأنثى، بينما يشير النوع Gender إلى التقسيمات الموازية وغير المتكافئة (اجتماعيًّا إلى الذكورة والأنوثة)، ولديها كتاب عن هذا عنوانه (الجنس والنوع والمجتمع، عام ١٩٧٢م).

عصمت: لم أفهم شيئًا.

ليلى: ما لك يا عصمت؟! ركّزي معي، الفروق الفسيولوجية بين الرجل والمرأة لا يمكن إنكارُها، كما لا يمكن العبث بها، وبالتالي فهي تقف كصخرة في طريقنا إلى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، ومِن هنا تمَّ التركيز على (الجندر)، أو النوع الاجتماعي؛ لأنَّه يوضِّح الفروق بين الرجل والمرأة على صعيد الدور الاجتماعي، والمنظور الثقافي والوظيفة، تلك الفروق النابعة كنِتاج لعوامل دِينيَّة وثقافيَّة، وسياسية واجتماعية؛ أي: إنها فروق صَنَعها البشر عبرَ تاريخهم الطويل.

فإذا عجز البشر عن إزالة الفروق البيولوجية، فمِن الممكن إزالةُ الفروق النوعية (الجندرية) بين الرجل والمرأة، وذلك مِن خلال برامجَ تنمويةٍ تعمل على تغيير قِيمي وبنيوي داخلَ المجتمع، يكفل إزالةَ هذه الفروق.

عصمت: يا ماما، الكلام معقّد جدًّا.

ليلى: سأسهّل لك الأمر أكثر، كما تعرفين: إنَّ الرجل يُهيمِن على المرأة، ويمارس قوَّة اجتماعيَّة وسياسية واقتصادية عليها، ويجب منحُ المرأة قوَّة سياسيَّة واجتماعيَّة واقتصادية تساوي القوةَ

المنوحة للرجل في جميع المستويات، حتى في الأسرة.

تخرج ليلى كتابًا من شنطتها.. سأقرأ لك تعريف الجندر من أكثر من مصدر؛ حتى يتضح الأمر جيدًا، ولا بد أن تحفظي هذه التعريفات والمراجع؛ حتى يظهر أنك مثقفة.

عَرَّفت الموسوعة البريطانية (الجندر):

«هي شعور الإنسان بنفسِه كذَكَر أو أنثى؛ ولكن هناك حالاتٌ لا يرتبط فيها شعور الإنسان بخصائصه العضوية، ولا يكون هناك توافُق بين الصِّفات العضوية وهُويته الجندرية، إنَّ الهُوية الجندرية ليستْ ثابتة بالولادة؛ بل تؤثِّر فيها العوامل النفسية والاجتماعية بتشكيل نواة الهُوية الجندرية، وتتغيَّر وتتوسع بتأثير العوامل الاجتماعية، كلما نما الطفل».

وتعريف منظمة الصحة العالمية للجندر:

«هو المصطلح الذي يُفيد استعماله وصفَ الخصائص التي يحملها الرجل والمرأة كصِفات مركبة اجتماعية، لا علاقة لها بالاختلافات العُضوية».

وجاءت في (المادة الخامسة) من (السيداو)، وهي المادة التي تطالب بتغيير الأنماط الاجتماعيَّة والثقافية لدَور كلٍّ من الرجل

والمرأة؛ بهدف تحقيق القضاء على التحيُّزات والعادات العُرفية.

عصمت: يا إلهي! ما هذا؟! تقصدين أن الجندر نوع اجتماعي يتعلق بالأدوار المحدَّدة اجتماعيًّا لكلٍّ من الذكر والأنثى، وأن هذه الأدوار تُكتسب بالتعليم، وتتغيَّر بتغير الثقافة.

ليلى: أخيرًا فهمتِ، وهذا المصطلح يشير إلى الأدوار والمسؤوليات التي يُحدِّدها المجتمع للمرأة والرجل، وهو يعني أيضًا: الصورة التي ينظر بها المجتمعُ للمرأة والرجل، وهذا ليس له عَلاقة بالاختلافات الجسديَّة (البيولوجية والجنسية).

عصمت: أيعقل أن الأمومة ورغبات المرأة كلها مكتسبة؟! يعني العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة بسبب ثقافة المجتمع، وهو مثل العلاقة الشاذة بالضبط؟!

ليلى: الحمد لله أن أحدًا من الغربيات اللاتي ينظرن لنا بإعجاب لم تناقشك، عليّ الآن أن أفهمك جيدًا، اسمعي بفهم، فكيف تفعلين لو لم أكن معك؟

تقول (أوكلي): «إنَّ الأمومة خُرافة، ولا يوجد هناك غريزة للأمومة، وإنما ثقافة المجتمع هي التي تصنع هذه الغريزة؛ ولهذا نجد أنَّ الأمومة تعتبر وظيفةً اجتماعية».

وفي كتاب «الأسرة وتحديات المستقبل» من مطبوعات الأمم المتحدة: يمكن تصنيف الأسرة إلى ١٢ شكلاً ونمطًا، ومنها أُسر الجنس الواحد.

عصمت: تقصدين أُسر الشواذ!! ولكن ألا ترين يا ماما، لمجرد أني تأخرت في الحمل أكاد أجنّ، وأنت نفسك تحثينني على أن أنجب؟!

ليلى: نحن لنا وضع آخر، وهذا بيني وبينك فقط؛ لكن إياك أن تتفوهي به؛ فهذا كلام الرجعيين؛ ففي يوم سيطلب منا أن نطبق مفهوم الجندر هنا، وما تشعرين به لأنك وسط مجتمع وثقافة متخلفة، ولو كنت في أوربا لما أهمّك ذلك.

أظنك فهمت الآن، دعينا ننطلق إلى إقرار مساواة المرأة مساواة مطلقة، أفهمت؟ مطلقة، وعلينا السعي في تعيين المشايخ الثلاثة.

* * *

أقبلت عصمت على أمها متهلّلة، وفي يدها الصحيفة.

عصمت: لقد نجحنا يا ماما؛ اليوم صدرت قرارات جمهورية؛ لرفع الغبن الواقع على المرأة، ومنها قرار بتعيين المرأة في سلك

القضاء، رغم معارضة القضاة، وتعلُّلهم بأنهم يريدون تهيئة الأجواء لها أولاً.

صدر قرار جمهوري بتعيين المشايخ الثلاثة، وانهمر سيل المدح في الإعلام على الثلاثة وعلمهم وفضلهم، وأنهم مجدِّدون في الإسلام، ولهم اجتهاداتهم التي ستقضي على التطرف، واستبشر الناس بالثلاثة من كثرة المقالات التي كتبت عنهم، والكلام الذي قيل عنهم، وأخذوا يحلمون بعودة أزهرهم للمجد التليد.

ضحكت ليلى وقالت: اليوم يعقد اجتماع تاريخي سيغيّر وجه المجتمع المصري، ويقضي على سطوة الرجل؛ ليقتسم السطوة طرفا المجتمع – الرجل والمرأة – أو لتكن السطوة للمرأة فقط؛ فقد أخذ الرجل حظه، ومارس سلطته على مر التاريخ، فليترك للمرأة أن تجرّب حظها، وليبدأ تاريخ المرأة.

وسيكون الاجتماع تحت رئاسة السيدة عصمت جلال.

عصمت: أنا يا أمي؟!

ليلى: نعم ومعك قيادات الحركة النِّسوية، وسيحضر الاجتماع جميع الوزراء، ورؤوس الفكر والأدب والصحافة، وشيوخ من الأزهر والقساوسة.

فرحت عصمت رغم ما يخالجها من قلق وراحت تستعد لاجتماع المساء.

بدأ الاجتماع بكلمة رئيسة الاجتماع السيدة عصمت:

السيدات والسادة، الحضور الكرام، لقد رأيتم وجه التقدم الحضاري الذي أنجزناه لبلدنا، الحبيبة مصر أم الدنيا، وحُقَّ لها هذا اللقب؛ فقد صارت المرأة في الغرب تتطلع إلى ما وصلت إليه أختها هنا، وبعد أن كنا نقتفي أثر خطواتهن، صرن هن من يقتفين أثرنا. (تصفيق حاد).

ولكن لا ينبغي أن تقف المرأة في كفاحها عند هذا الحد، فعليها أن تسعى نحو التقدم، ونيل أقصى قدر ممكن من أحلامها، حتى تصل إلى حلمها الكبير؛ المساواة الكاملة مع الرجل.

واليوم هناك بعض النقاط الخاصة بالمرأة، على الحضور الكرام مناقشتها للأخذ بإيجابياتها وتجنُّب سلبياتها، وهما نقطتان:

١- أن يكون اسم المواطن والمواطنة باسم الأم لا الأب، ومن ثم فيكون النسب للأم.

٢- دور المرأة في مجلس الشعب.

بالنسبة للنقطة الأولى: لا يخفى عليكم أن هذا الأمر ذو

حساسية عند المجتمع، فكان من أحلامي أن أنادى باسم أمي لا أبي؛ لأنها هي التي ربّتني وتعبت من أجلي؛ فكيف أنادى باسم أبي لمجرد أنه ذكر وأمي أنثى؟! وبعد مناقشات ومداولات مع أصحاب الفكر والمثقفين التنويريين، وجدت أن هذه الفكرة لدى الجميع، ولكنهم يخافون من رد فعل المجتمع الذكوري، والآن نفتح باب المناقشة.

- الدكتور أحمد سامي.. تفضل يا دكتور.

- شكرًا يا سيادة الرئيسة، بادئ ذي بَدْء أنا سأُورد اعتراضات المجتمع، فهذا الأمر فيه صعوبة شديدة في تطبيقه، خاصة في المجتمعات المحافظة.

١- إن العالم الغربي المتقدم تلقّب المرأة فيه بلقب زوجها كما تعلمون؛ أي: تنال لقب زوجها، وهن راضيات يحببن ذلك، وأذكر أنه كان هناك رئيس لأمريكا منذ زمن اسمه جورج بوش، وكان اسم والدته «بربارا»، فهل كنا نناديه جورج بربارا. (يعلو صوت الضحك).

- الرئيسة: هذا هو عين اضطهاد المرأة في الغرب، وكما قلنا: نحن الآن من يَقُدْن القاطرة، ونحن لا نتبع الغرب في الصحيح

والخطأ، وسترى قريبًا بعد تطبيق هذا الأمر – إن وافق الحضور عليه – كيف سيتغير هذا الأمر في الغرب، وسيصيرون تبعًا لنا. (تصفيق حاد).

الدكتور أحمد سامي: ٢- هل سنغيّر أسماء جميع المواطنين مرة واحدة في الأوراق الرسمية؟ وهل هناك ميزانية كافية لذلك؟ وما حجم الهِزَّة المجتمعية التي ستحدث من جرّاء ذلك، خاصة إذا اعترض البعض؟

الرئيسة: هذا أمر إجرائي يسهل التعامل معه من الحكومة، والميزانية يسهل تدبيرها، وهناك معونة كبيرة تغطّي هذا الأمر بل تزيد من منظمات المرأة العالمية، ويمكن تطبيقه على مراحل، مثل أن يكتب المواليد باسم الأم في شهادة الميلاد، ثم بعد ذلك تلاميذ الابتدائي، وهكذا، وبالنسبة لاعتراض البعض فهناك رأي الأغلبية وما يقرّره مجلس الشعب، وها أنتم أولاء المثقفون ورؤوس الفكر في البلد، ولم يغب عن هذا اللقاء إلا أصحاب الأفكار المتطرفة والمتشددة.

الدكتور أحمد سامي: ٣- هناك اعتراض ديني؛ فإن الله تعالى يقول في سورة الأحزاب: M g h L.

الرئيسة: بالنسبة للأمر الديني هناك من الحضور شيخ الأزهر والمفتي والشيوخ الأجلاء، وهم يفتون في ذلك، تفضل يا فضيلة الشيخ سلامة.

يهبّ الشيخ سلامة كالأسد الهصور الذي أدرك فريسته.

بسم الله والله أكبر.. الله أكبر، إننا نفخر أننا أدركنا هذه العقول المتفتحة التي تجدِّد الخطاب الديني، أما المتشددون والمتطرفون الذين يريدوننا أن نعود إلى الوراء، فلا، وألف لا، وكلا، وألف كلا.

إنهم يفهمون القرآن والسنة بفكر متشدد خالٍ من أي تجديد، ولا يُعْمِلون عقولهم الخرِبة في فهم الأدلة، وأقول لهؤلاء الجهلاء: إن الزمان قد تغيّر، وليس لكم مكان في ساحة أهل العلم، وأقول وبالله التوفيق:

إن الله ينادي على الناس يوم القيامة بأسماء أمهاتهم، أهناك بعد هذا دليل يا سادة، ومن يضمن أن أباه هو أبوه الحقيقي؟! هل رآه – ولا مؤاخذة – عند اللحظات الحميمية؟! وعلى ذلك فعندما ننادى باسم الأم، فهذا ضمان للمجتمع، وإظهار للحقيقة الناصعة، وصدع بالحق.

ثانيًا: بالنسبة للآية، فمن يذكرها لا يفهم معناها، وأقول له: ارجع إلى سياق الآية، واقرأ التفاسير يا جاهل.

ثالثًا: النبي ﷺ قال للرجل الذي سأله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، ثلاث مرات، وأبوك مرة واحدة.

والجنة تحت أقدام الأمهات، ويقول الشاعر:

الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا ... أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

ولو شئتم لجلست إلى الصباح أذكر الأدلة للرد على هؤلاء المتشددين المتطرفين الجهلاء. هذا؛ وأعلن أنني من اليوم اسمي «سلامة بَهَانَة».

(تضج القاعة بالتصفيق والضحك).

الرئيسة: شكرًا يا شيخ سلامة، ولكن التسمية ليست الآن، هناك إجراءات، فلا تستعجل، ونحن نعلم أنك شيخ متحرر، ولك اجتهادك في تجديد الخطاب الديني.

هل هناك أسئلة أخرى يا دكتور أحمد؟

الدكتور أحمد: شكرًا يا أفندم؛ لقد اقتنعت ومستعد لتغيير اسمي. (تصفيق حاد).

الرئيسة: هل هناك مناقشات أو اعتراضات أو أسئلة؟ إذن من

يوافق على هذه النقطة يرفع يده.

جميع الحضور يرفعون يديهم الاثنتين.

يظهر الاستبشار على وجه الرئيسة.

إذن؛ نبدأ في الإجراءات لتغيير الأسماء وكيفية ذلك ومراحله، وأول مرحلة نقترحها تغيير أسماء الوزراء. (تصفيق حاد لمدة طويلة).

ننتقل إلى النقطة الثانية: دور المرأة في مجلس الشعب.

المرأة في مجتمعنا مغيَّبة سياسيًّا، ورغم بعض المكاسب التي حصلت عليها مثل كوته المرأة في مجلس الشعب، فإن الحرب عليها من المجتمع الذكوري لم تهدأ، وإذا ترشحت المرأة في انتخابات تنافسية مع الرجل فحتمًا سينجح الرجل.

أعرف أن هناك من يقول: إنه في المجتمعات الغربية لم تصل المرأة بقوة، ولم تنجح في لعب أي دور سياسي مؤثر إلا بعض الحالات النادرة؛ فرؤساء أمريكا كلهم رجال، وكذلك فرنسا، وهلمَّ جرًّا.

ولكن نقول لهؤلاء: إننا الآن في موضع قيادة لا تبعية. (تصفيق حاد).

هناك بعض اقتراحات لتطوير دور المرأة، سأعرضها عليكم لنناقشها:

١- أن يصير مجلس الشعب عبارة عن مجلسين أحدهما للرجال والآخر للنساء؛ مثل أمريكا: مجلسي الشيوخ والنواب.

٢- أن يصير عدد أعضاء مجلس الشعب مناصفة بين الرجال والنساء، بنسبة ٥٠٪ رجال، و ٥٠٪ نساء، أو نحذف «عمال وفلاحين» من الدستور، وتصير مكانها «نساء».

٣- أن يتضاعف عدد الأعضاء، فيظل عدد أعضاء المجلس كما هو، وكلهم رجال، وبالتوازي عدد مثلهم من النساء، وندرس آلية أخذ الأصوات.

نبدأ في مناقشة الاقتراحات، ومن عنده اقتراحات أخرى يعرضها.

بالنسبة لمناقشة الاقتراحات، يتفضل الدكتور سمير علي، أستاذ القانون الدستوري المعروف.

الدكتور سمير: شكرًا سعادة الرئيسة.

أولاً: بالنسبة للاقتراح الأول سيواجهه صعوبات كثيرة، خاصة في الانتخابات، فالكونجرس الأمريكي يتعامل مع الدولة

الفيدرالية على أساسين: مجلس الشيوخ يراعى فيه الولايات، على أساس أن كل ولاية يخرج منها نائبان، ومجلس النواب يراعى فيه كون الدولة ككيان واحد، على أساس أنها دولة واحدة متماسكة عبارة عن دوائر انتخابية مثل مصر، ونحن دولة متماسكة، وليس عندنا ولايات، بالإضافة إلى أن هناك أمورًا إجرائية يطول شرحها؛ ومن ثم فالاقتراح الأول يستحيل تطبيقه.

بالنسبة للاقتراح الثاني: نسبة العمال والفلاحين ٥٠٪ على الأقل؛ أي: يمكن زيادتهم في المجلس؛ ولكن لا تقل نسبتهم عن ٥٠٪، ومن ثم سيصعب وضع «النساء» موضع «العمال والفلاحين»، وإلا سيعدّ تمييزًا ضد الرجل.

بالنسبة للاقتراح الثالث: أظن أنه هو الاقتراح الصحيح؛ ولكن مضاعفة العدد ستدخلنا في صعوبات إجرائية؛ مثل عدم سعة المكان لهذا العدد، ولذلك أقترح أن نضم كل دائرتين في دائرة على أن يكون في كل دائرة أربعة أعضاء: رجلان وامرأتان، وبهذا تظل نسبة العمال والفلاحين كما هي، ومن ثم يظل عدد أعضاء مجلس الشعب كما هو، ولا يحدث تغيير دراماتيكي. (تصفيق حاد).

الرئيسة: شكرًا للدكتور سمير علي، وقد وضح الأمر جيدًا، وسيتم تكليفه برئاسة لجنة لصياغة التعديلات الدستورية التي نحتاج إليها؛ حتى تصبح التعديلات مضمونة بنص دستوري لا يستطيع أحد التلاعب بها.

* * *

بعد هذا الاجتماع حدثت تطورات دراماتيكية: تم تعديل بعض مواد الدستور بعد عرضها على مجلس الشعب وإقرارها، ثم عرضها على الشعب في استفتاء، كانت نتيجته ٩٩,٩٩٩٪، رغم المعارضة الشديدة، وتم حل مجلس الشعب لإجراء الانتخابات على أساس التعديلات الدستورية الجديدة، وتم إجراؤها سريعًا، وكذلك تم تعيين وكيلات النيابة مناصفة مع وكلاء النيابة، وتعيين القاضيات في كافة المحاكم المصرية، رغم معارضة معظم القضاة.

وفي موضوع النسب للأم، تم عقد اجتماع مجلس الوزراء لتغيير أسماء الوزراء.

رئيس الوزراء: أعلم أن الأمر فيه مشقة كبيرة عليكم؛ ولكن ما باليد حيلة، والتقارير أمامي تقول: إن الشعب ساخط بسبب

الإجراءات الجديدة، وأخذوا يطلقون النكات علينا وعلى أسماء أمهاتنا؛ لدرجة أنهم أصبحوا لا يقولون: شيخ الأزهر؛ بل يقولون: ابن بهانة.

طبعًا لن نذكر أسماء أمهاتنا الحقيقية، وإلا صارت فضائح؛ ولكن سنختار أسماء أخرى حتى نمسك العصا من المنتصف.

أولاً: بالنسبة للوزارات السيادية سنعطيها بعض الأسماء التي يسمى بها الذكر والأنثى، فمثلاً: وزير الدفاع: جهاد، وزير الداخلية: رضا... وأخذ يعدّد الأسماء.

بالنسبة لباقي الوزارات، فلكل وزير اقتراح ثلاثة أسماء مرتّبة، وفي حالة التعارض نجري قُرْعة.

هل هناك استفسار؟

وزير الدفاع: يا سيادة الرئيس، إننا سنصير بلا هيبة أمام الشعب، وستصبح أمهاتنا على كل لسان، ولا تحسب أن الناس ساذجة؛ فإنهم سيبحثون عن أسماء أمهاتنا الحقيقية.

الرئيس: ما باليد حيلة؛ حكم القوي على الضعيف، ومن يعترض فليس أمامه إلا الاستقالة، فهل من معترض؟

وزير الدفاع: لا يا سيادة الرئيس، أنا لا أعترض؛ ولكن أذكر

ما يدور في نفوس زملائي الوزراء.

الرئيس: إذن؛ فلنبدأ بتطبيق الأوامر، وبعد يومين سيتم عقد مؤتمر صحفي نذكر فيه الأسماء الجديدة، فكل واحد منكم يعطي اسمه لوزير الإعلام.

* * *

هذه النجاحات حفزت السيدة عصمت لتكثيف جهودها واجتماعاتها مع قيادات الحركة النسوية، والفائزات في الانتخابات.

اجتماع السيدة عصمت مع قيادات الحركة النسوية والفائزات في الانتخابات.

عصمت: لقد حققنا نجاحات كبيرة جدًّا بدخول المرأة قاضية في جميع المحاكم، وكذلك بالتعديلات الدستورية التي تمكّن للمرأة، وحصولنا على نصف مقاعد مجلس الشعب، والمطلوب الآن أن يكون لنا دور بارز في محاسبة الحكومة.

نحن جميعًا نعلم الإساءات التي تنسب للمجلس بسبب مداهنته للحكومة وعدم تقويمها، وتقديم المصالح الشخصية على المصالح العامة.

بالنسبة للنقاط التي تناقشنا فيها من قبل؛ مثل موضوع رئاسة المجلس، سنتركه في الدورة الأولى للرجال، ورئاسة اللجان ستكون بالتساوي.

ما أريد التأكيد عليه هو أننا لابد أن نتعامل كحزب واحد، هو حزب المرأة أمام حزب الرجل؛ حتى تتم المساواة الكاملة، وعليكن أن تضعن الالتزامات الحزبية والأفكار السياسية جانبًا؛ حتى يكون لنا التأثير الأكبر، وأنتن تعلمن أن النواب الرجال في المجلس خلافاتهم الحزبية والشخصية تزكم الأنوف.

وعليه فالمطلوب:

١- توحيد الجهود النسوية.

٢- القيام بالدور الأعظم في محاسبة الحكومة.

٣- أن تصير المناصب القيادية في جميع الوزارات نصفها على الأقل من نصيب المرأة.

هل هناك استفسارات؟

ترفع إحداهن يدها.. تفضلي.

كيف سنحصل على مناصب في وزارات الدفاع والداخلية مثلاً؟

عصمت: لا تقلقي، مع الوقت سنحصل على ما نريد.

المهم الآن تنظيم أنفسكن، وتوزيع الأدوار ورئاسة اللجان، وسيتولى ذلك الدكتورة سحر علي؛ وتوصيفها إعلاميًّا سيكون «زعيمة المرأة في مجلس الشعب».. أعلم أن هناك اعتراضاتٍ ستذكر على أن هذا ليس توصيفًا سياسيًّا؛ فتوصيف الرجال: زعيم الأغلبية وزعيم المعارضة؛ ولكن لابد أن يعلم الجميع أن النساء متّحدات حتى يحصلن على حقوقهن.

أترككن الآن مع الدكتورة سحر؛ لتحديد رئيسات اللجان، وتوزيع الأدوار، والدكتورة سحر غنية عن التعريف، فهي من الناشطات في مجال المرأة والدفاع عن حقوقها، ومن سيدات المجتمع، ودكتورة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.. شكرًا لكن.

الدكتورة سحر تصعد إلى المنصة: مساء الخير، أشكر السيدة الرئيسة، وأشكركن على ثقتكن الغالية فيّ لقيادة سفينة المرأة في مجلس الشعب، وهو تكليف شاق لا تشريف.

بداية، سيتم تقسيم النائبات إلى مجموعات عمل: مجموعة لجمع معلومات عن أداء الوزارات والفساد فيها، مع جمع الأدلة الموثّقة، ومجموعة مهمتها مواجهة تشويش النواب والضغط على الوزراء

أثناء استجوابهم.

المهم نريد منهم أن يصابوا برعب حقيقي من المرأة، وأن يعلموا أن دورها مؤثر، وأن يكفُّوا عن نغمة الاستهزاء بدور المرأة.

هناك مجموعات أخرى؛ ولكن ليس دورها الآن.

بالنسبة للمجموعة الأولى سأتولى رئاستها بنفسي، والمجموعة الثانية ستكون قيادتها مع المعلّمة «كيداهم»، وهي التي ستضع الآليات لطريقة عمل المجموعة.

المعلّمة كيداهم: والله لأجعلنّهم يصابون بالكوابيس والرعب من مجرد دخول المجلس. (يعلو صوت الضحك).

سحر: أعلم أنك على كفاءة عالية في هذا المجال، فيكفي اسمك وشعبيتك وسمعتك بين الناس، والمشاكل التي تفتعلينها والتي تحلّينها في المذبح.

كيداهم: نحن في الخدمة، وسترين ماذا سأفعل في الوزراء؟

(يعلو صوت التصفيق والضحك).

* * *

الأستاذ رزق المحامي، قصير، وكِرْشه عظيم، مع أنه نحيف،

نظارته سميكة؛ ربما من كثرة القراءة في القضايا، يستطيع أن يخرج أي مجرم من قضيته كالشعرة من العجين، من رؤوس المحاماة في البلد، ويعمل عنده في مكتبه عدد كبير من المحامين.

يدخل الأستاذ زرق الاجتماع، تنقطع الأصوات، فلا تسمع إلا همسًا.

يجلس على المكتب المعدِّ له، وأمامه المحامون.

- طبعًا كل واحد منكم جاهز بتصور عن التطورات الأخيرة في سلك القضاء كما طلبتُ منكم.

- في صوت واحد: نعم يا أستاذنا.

- نحن متفقون أن الوضع الجديد أفضل بالنسبة لنا، ولكن كيف نطوّر عملنا، ونُفيد إفادة تامة؟

- يقول أحدهم: يا أفندم العين لا تعلو على الحاجب، حضرتك تذكر أفكارك العظيمة التي مهما فعلنا فلن نصل إلى بعضها، ونحن نتحاور معكم، ونستفيد منكم، ونقتبس من نوركم.

- ينتشي رزق: أستغفر الله يا ابني، نحن في سفينة واحدة، والخير يعمّ على الجميع، عمومًا سأشرح لكم الخطة: طبعًا كلكم تخرجتم في كلية الحقوق، وأنتم تعلمون الاختلاط وقصص الحب

والغرام، والزواج العرفي، إلى آخره من هذه الأمور السيئة – للأسف – في الكلية، وهذا الأمر شائع يكاد لا ينجو منه إلا المنتقبات والمتدينات، وهؤلاء لا يتم تعينهن في النيابة؛ أي: إن – تقريبًا – كل الفتيات في الكلية كن يعرفن شبابًا، وهذا هو الأساس الذي سنبني عليه.

سنقوم بعمل ملفٍّ لكل قاضية أو وكيلة نيابة، فيه كل تاريخها في الكلية: من كانت تصاحب؟ من كانت تحب؟ هل تزوجت عرفيًّا أو لا؟... إلى آخره.

– لو سمحت يا أستاذ؟

– تفضل.

– سيكون هناك جهد ضائع، فما فائدة إعداد ملف لمن لا تتولى قضية من قضايا المكتب؟

– يا بني، لو صبرت قليلاً لوجدت الرد.

– سنبدأ بمن تتولى إحدى قضايانا في المكتب، والباقي سيكون مخزونًا، أو قاعدة معلومات ربما نحتاج إليها، وإذا احتاج بعض المحامين إلى شيء من هذه المعلومات، فسنبيع له المعلومات بالمبلغ الذي نريده (تضج القاعة بالتصفيق).

– يا إخوتي ويا أبنائي، كل شيء تم دراسته جيدًا، فلا تقلقوا. (يزداد التصفيق).

– أريد بداية – في موعد أقصاه أسبوع – معرفة دفعة كل قاضية ممن تم تعيينهن، وأسماء أصحابها وصاحباتها، ثم بعد ذلك نبدأ عمل قاعدة المعلومات.

– من منكم قرأ في علم النفس؟

– يرفع ثلاثة أيديهم.

– أنتم أريد منكم القراءة في نفسية المرأة وكيفية التأثير عليها....إلخ؛ حتى نسير على أسلوب علمي.

– تضج القاعة بالتصفيق، ويعلو الصوت: زادكم الله علمًا يا أستاذنا.

– أبشّركم أن هناك مكافآت مجزية للمعلومات الخطيرة.

– يسأل أحدهم: مثل ماذا؟

– واحدة تزوجت عرفيًّا وتأتينا بزوجها أو صورة للعقد.. واحدة عندها فضيحة.. وهكذا، وربنا يستر على ولايانا.

– تضج القاعة بالتصفيق.

– هل أحد عنده سؤال أو استفسار؟

- يرفع أحدهم صوته: إن من البيان لسحرًا، وسيادتك أَبَنْتَ حتى إن البيان ليعجبُ من بيانك. (يزداد التصفيق).

- إذن؛ تفضلوا، وخير البر عاجله، البداية من الليلة.

* * *

- ثمة اجتماع للقاضيات مع المجلس القومي للمرأة.

- عصمت: لقد أنجزنا اليوم إنجازًا عظيمًا، وأنتن تمثّلن طليعة المرأة القاضية التي تقيم العدل في هذا المجتمع الذكوري.

- إحدى القاضيات: ولكن هناك تربُّص بنا، فقد فرّقونا في البلاد، فكيف نترك أبناءنا وأزواجنا لنسافر إلى المحافظات البعيدة؟! نريد أن نظل هنا في القاهرة وفي محافظاتنا؛ مراعاة لظروفنا العائلية، خاصة أن عددنا ما زال قليلاً.

- عصمت: كيف ذلك؟ إن هذا ما كان يحتجّون به علينا، فلا يعقل أن نأخذ المميزات فقط، والطليعة لابد أن تصبر حتى تذلّل الصعوبات لمن يأتي بعدها، وألاحظ أن فرحتنا كمدافعات عن قضايا المرأة أكثر منكن أيتها القاضيات، فلا ينبغي ذلك.

وسنذلّل لكنّ ما نستطيع من الصعوبات؛ ولكن الصبر.

* * *

العاملون في استراحة قنا جالسون، ينتظرون القاضية الجديدة.

- اليوم ستأتي القاضية الجديدة، ولا أعلم كيف أناديها؟ أقول لها: مدام فوزية، أم السيدة فوزية، أم القاضية فوزية؟ أم ماذا؟

- أنا لا أعرف كيف ستنام وحدها مع القضاة الرجال، وكيف لا تأمن أن يقوم أحد بتصويرها في هذا الزمان الذي استبيحت فيه الحرمات وأصبح تصوير النساء هواية؟!

- انظر: هذه هي القاضية.. صوت سيارة تقف.. ينظرون من الشباك.

- لا وأنت الصادق: هذه الضربة القاضية؛ إنها بدينة جدًّا. (يضحكون).

تدخل القاضية فوزية، والحيرة بادية على وجهها، وواضح أنها تحدّث نفسها: كيف سأتعامل مع القضاة؟ وكيف أبيت معهم؟ وكان زوجها وأبناؤها قد اعترضوا على عملها بقنا، وناقشوها في هذه الأمور، قالوا: لو هنا بالقاهرة فمرحبًا، أما أن تتركينا لأجل هذه الوظيفة مهما كانت، فنحن لا نحتاج إلى شيء، إلا أنها لم تجد مفرًّا من القبول، وحاولت مع الواسطة التي أدخلتها سلك القضاء

لتظل في القاهرة، ولكن قالت لها: إن القضاة متعنّتون معهن، ويقصدون أن يذهبن إلى البلاد البعيدة حتى يعرفن أن الأمر ليس نزهة.

- أنا القاضية فوزية.

- البواب: تشرفنا يا أفندم.

- أنزل الشنطة من السيارة إلى غرفتي.

- حاضر يا أفندم.

- يا يونس، تعال، خذ الهانم إلى غرفتها.

- مرحبًا بسيدة القضاة.. تفضلي.

- هل هنا أحد؟

- هنا سيادة المستشار أحمد رمزي نائمًا في غرفته.

- تردِّد في نفسها: هذا الاسم ليس غريبًا علي.. معقول هو أحمد رمزي؟! اللهم اجعله خيرًا.

- تدخل الاستراحة، تشعر بشيء ما يخيفها، كيف سأجلس هنا وسط الرجال؟ كيف سأنام؟ كيف سأدخل الحمام؟ الأسئلة تنهمر على رأسها.

- تفضلي، هذه غرفتك، أعددناها لسيادتك.

- شكرًا.

- تغلق الباب وتجلس على السرير.. هل يا ترى هذا المستشار هو أحمد رمزي؟ ولو كان هو كيف سأتصرف؟ كيف سأتعامل معه؟

تقتحم ذاكرتَها أيامُ الجامعة، وتتذكر الفتى المدلَّل أحمد رمزي، فتى مدلل، أبوه مستشار، لا يعبأ بالكلية، فهو ضامن التعيين في النيابة، شغله الشاغل مصاحبة الفتيات وإقامة علاقات معهن، والاستهزاء بمن لا يعجبه شكلها.

كان أحمد رمزي يسمِّيها القنبلة الذرية، وأحيانًا الكرة الأرضية، حتى صار اللقبان ملازمينِ لها، تسمعهما في كل مكان بالجامعة، حتى من الحرس.

- يا ألله! هل يمكن أن يكون هو؟ لم أكره أحدًا في حياتي مثله، ولم أتمنَّ موت أحد أو قتله بيدي إلا هو، يا ليتي لم آتِ إلى هنا!

- لا يا فوزية، هل تضعفين هكذا لمجرد ذكر أحمد رمزي؟ يا لك من ضعيفة! كيف يحطِّم معنوياتك، ويجعلك تكفرين بكل ما كنت تحاربين من أجله؟! لقد ضحيت بأولادي وزوجي وتركتهم، اهدئي يا فوزية؛ ربما لا يكون هو.

- تنام على السرير ورأسها يكاد ينفجر من هجوم الأسئلة وكثرتها.. تسمع صوتًا بالخارج.. تقوم من على سريرها.. تحاول سماع أي صوت يدلّها على الشخص بالخارج.. تحاول النظر من فتحة الباب.. ترى أجزاء من شخص ولكنها غير واضحة؛ الجزء الأسفل فقط.. يبعد قليلاً، يظهر الكتف.. يا ليته يتقدم للأمام.

يدخل الحمام وهي مازالت جالسة تنظر.. يخرج ولم تتحرك.. ها هو يتحرك للأمام، يمكن تحديد بعض ملامحه، إنه بشارب.. تأخذ نفَسًا عميقًا، ثم ترتمي على السرير.

الحمد لله، إنه ليس هو؛ فأحمد رمزي مرفَّه، كان يزين وجهه وكأنه فتاة.

- تهدأ قليلاً.. تسمع صوت يونس يتحدث مع المستشار.. تقوم من على السرير.. تضع أذنها على فتحة الباب، الصوت ضعيف، لا تكاد تسمع.. تضع عينيها على الفتحة.. تراهما واقفينِ أمام فتحة الباب.

- على فكرة يا باشا، المدام في هذه الغرفة. (يضحك يونس بسخرية).

- أية مدام؟

- القاضية الجديدة.

- هي شرّفت؟!

- يشير يونس بيديه هازئًا: أنها بدينة جدًّا.

- ممكن أن تكون حاملاً، والمصيبة أن تلد أثناء النطق بالحكم. (يضحك بصوت عال).

- صوتك يا باشا حتى لا تسمع الهانم.

- تسمع أو لا تسمع، لا يعنيني.. وما اسم الهانم؟

- القاضية فوزية.

- فوزية!.. وبدينة! الظاهر هي. (يضحك بصوت عال).

- من هي؟

- فوزية القنبلة الذرية، لو كانت هي سنتسلى حتى الصباح.

- أُسقط في يد فوزية، يا إلهي إنه هو!! يا ليتني لم آتِ إلى هنا، وجلستُ في بيتي مع أولادي وزوجي، لماذا أضحي بهم ولا أضحي من أجلهم؟! أمن أجل قاضية، مستشارة؟! يا لها من قضية خاسرة!

- ترتمي على السرير.. تمسك بهاتفها المحمول.

- السلام عليكم.. كيف حالك يا محسن؟

- نحن بخير يا هانم، لا تتعبي نفسك بالتفكير فينا، نحن نستطيع

تدبير أمورنا جيدًا، المهم أنت يا سيادة القاضية.. أنت فقط.

- فوزية: اسمع يا محسن، أنا سآتي الآن - تبكي – أنا آسفة، سآتي وأعوضكم عن كل ما مضى، أنت وأولادي أولاً وقبل كل شيء؛ بل أنتم أولاً وأخيرًا.. سلام.. تغلق الهاتف.

* * *

تجلس وكيلة النيابة هبة أمام مكتبها فرحة منتشية، لقد كان حلمًا بعيدًا أن تصبح وكيلة نيابة، وقد أخذت العهد على نفسها أن تكون طليعة خير لصويحباتها، ولتثبت أن النساء لا ينقصهن الجرأة في العمل كوكيلات نيابة.

- طرقٌ على الباب.. تفضل.

- هناك جريمة قتل مطلوب معاينتها.

- تهزّها الكلمة بقوة.. تحاول التماسك.. تتكلم وكأنه أمر عادي بالنسبة لها: متى؟

- الآن.

- تفضل.

تنزل من السيارة.. تتقدم بثقة وقلبها يدق بقوة.. تدخل

البيت.. الشرطة في انتظارها.. عدد كبير من الناس يقفون ليشاهدوا الجريمة البشعة.

- مدخل البيت كئيب.. رائحة الغدر والخيانة تفوح من أرجائه مختلطة برائحة الدم.. تصعد السلم إلى الدور الثاني.. تدخل الشقة.. كل شيء فيها قديم كقدم البيت.. تنظر إلى سيدة مقيدة بالكلابش، وتسمع نحيب أطفال في إحدى الغرف.

- تفضلي من هنا.. في هذه الغرفة. (يقول الضابط).

- قلبها يدق بقسوة.. تحاول إظهار التجلُّد.

- يفتح لها الباب.

- تدخل من الباب.. يصدمها منظر الجثة؛ الجثة مسجاة على الأرض، بجوارها بقعة كبيرة من الدماء، والجثة مغطاة بملاءة بيضاء.

- يا له من منظر رهيب! يكاد يغمى عليها.. يغلبها القيء.. ينزل بغزارة.

- الحمّام من هنا. (يشير لها الضابط).

- تذهب بسرعة إلى الحمّام.. يصيبها الرعب فيه.. تخرج بسرعة وقد ظهر عليها الإعياء والرهبة.

- الضابط: هذه طبيعة عملك؛ فكيف ستتعاملين مع هذه

المواقف؟ إن هذه جريمة يسيرة؛ فكيف ستتعاملين مع الأشلاء الممزقة، ومع المحروقين....؟!

- تشعر أنه أشفق عليها، وتشعر أمامه بالضعف.. تحاول أن تتماسك.. لأول مرة تتحدث مع رجل بدون تحدٍّ.. يا له من موقف!

لا تقلق.. أنا مريضة فقط، ولم أستطع أخذ إجازة؛ لأنه أول يوم عمل.. هيا لنكمل المعاينة.

- تعود إلى الغرفة ثانية، وكأنها تدخل قبرًا.

يشعر بها الضابط.. ويعلم أنها لا تريد الظهور بالضعف: تفضلي عايني الجثة.

- تخاف أن تنظر نحوها.. تبلع ريقها.. يظهر عليها الرعب.. تنهار مقاومتها.

- لو سمحت، ممكن تساعدني؟ هذه أول مرة أرى قتيلاً.

- تحت أمرك.. يرفع الملاءة.. تضع يديها على وجهها وتبكي.

- الضابط للمخبر: اعمل كوبًا من الليمون بسرعة.

- هدِّئي من روعك.. هذه طبيعة العمل، وأرى أنه لا يناسب المرأة.

- أرجوك، لا تتحدث في هذا الموضوع الآن؛ فأنا في قمة الإحباط.

- حسنًا، ربما كان هذا لأنها أول مرة ثم تعتادين على ذلك مثلنا.

- تشرب الليمون وهي واقفة.. تكاد قدماها لا تحملانِها.

- هات كرسيًّا للهانم.

- لا يوجد كرسي هنا يا أفندم.

- هات أي شيء يصلح للجلوس.

- يأتي بإناء يستعمل لملء الماء في الحمام، ويقلبه لتجلس عليه.

- تجلس مستندة على الحائط.. تتمنى لو يزول هذا الكابوس بسرعة.

- تنظر إلى الجثة وهي جالسة.. ملطَّخة بالدماء.. واضح أن الطعنات في كل مكان بالجثة.

- تفضلي لتعايني الجثة، وتعدّي عدد الطعنات وأماكنها، والسكين المستخدم.

- الرعب بادٍ على وجهها، وجسدها ينتفض.

- ممكن أطلب منك خدمة؟

- تفضلي.

- ممكن سيادتك تكتب تقرير المعاينة؛ لأني متعبة جدًّا.

- واضح أنك جِدُّ متعبة أو مرعوبة (يبتسم)، ولكن نصيحة لوجه الله: إن هذا في صالحي لأني سأجعل تحرياتي هي العدل، وأنت تعلمين أن ذلك ليس في صالح العدالة، وتعلمين أن كثيرًا من الضباط لا يخافون الله، وربما استغل أحدهم هذا وظلم الأبرياء.

- أنا لم أطلب ذلك إلا لأني استرحت لك، وتيقنت أنك لن تظلم أحدًا، ولو حدث ذلك مرة أخرى سأستقيل، وأنا شاكرة لك.. ممكن أستأذن.

- والتقرير؟

- سيكتبه معك الأستاذ عليوة سكرتير النيابة.

- الأستاذ عليوة يسرّ لها بحديثه: ولكن هذا لا يصح يا هانم.

- آسفة يا أستاذ عليوة.. هذه المرة فقط، وأنا أثق بك.

- تثقين بي! شكرًا يا هانم (يقولها بتأفف) على هذه الثقة مع أنك لم تريني إلا اليوم.

- سأسبقك إلى النيابة.

- تفضلي.

- تخرج وكأنها عادت إليها الحياة من جديد، ومازالت صورة القتيل في مخيلتها.. يا ترى من قتله؟ ومن هذه المرأة التي كانت مقيدة؟ تتذكر أولاده الذين كانوا ينتحبون في الغرفة.. يا لمأساتهم!

- بعد خروجها يضحك الجميع ويستهزئون بالأستاذ عليوة والهانم، وتعلو ضحكاتهم.

ويرد عليهم الأستاذ عليوة: الحمد لله أن الهانم ليست حبلى، كانت ستسقط جنينها، وكنا نسينا الجثة.

- يضحك الجميع.

* * *

ينتشر ما حدث في جميع أقسام الشرطة كمادة للتندر والضحك، الست الهانم وكيلة النيابة، وكلهم يتوعدها وزميلاتها عند تكرار الموقف.

يدخل الأستاذ عليوة ومعه تقرير المعاينة: تفضلي يا أفندم.

- تنظر في التقرير وتقرؤه بسرعة.. بعد قراءة التقرير يظهر عليها علامات الدهشة.. يحكي لها الأستاذة عليوة قصة القتل

بالتفصيل.

– يا لها من خائنة! لو بيدي الأمر، لحكمت عليها بالإعدام حالاً.

– اصبري يا هانم.. تعاملي مع الأمر بمبدأ «المتهم بريء حتى تثبت إدانته».

– أدخلْها عليّ.

– تدخل المتهمة بخطوات متثاقلة.. يظهر على وجهها أثر الصدمة.

– اجلسي.. فكّ القيد من يديها.

– لماذا فعلت ذلك؟

– الأستاذ عليوة: لو سمحت يا أستاذة، نأخذ بياناتها أولاً.

– يأخذ بياناتها.. تفضلي يا أفندم.

– لماذا فعلتِ ذلك؟

– تبكي بحرقة ويزداد النحيب.

– هل هذه دموع التماسيح؟ أجيبي.

– تغالبها دموعها.. يا هانم، سأحكي لك القصة كاملة، وأرجوك ساعديني أن آخذ حكمًا بالإعدام، وإلا سأنتحر؛ فأنا لا

أستحق الحياة.

– لا تقلقي.. أنت لا تحتاجين إلى مساعدة.

– كان زوجي أبو علي رجلاً حنونًا كريمًا، لا يبخل عليّ ولا على أولاده بشيء، يعيش من أجلنا، ويضحِّي بكل ما يملك من أجلنا، وكنت كثيرة الطلبات، فكان يعمل أكثر من عمل حتى يلبّي طلباتنا، وكان يسافر كثيرًا ويغيب عن بيته أسبوعًا، وربما أكثر.

وكان صديقه جمال يقوم بمطالبنا في غيابه، ويعتمد عليه، ويثق به، ويقول لي: إنه أكثر من أخي، لا تتحرجي أن تطلبي منه أي شيء وكأنني موجود بالضبط.

وصار جمال يتردد علينا ليل نهار، وفي لحظة شيطانية – يعلو نحيبها – في لحظة شيطانية خان الأمانة.

– هبة: هو فقط؟!

– وغاب عقلي وأصبحت أتعامل معه كأنه زوجي، ويبدو أن أحد الأولاد لاحظ ذلك، فأخبر أباه، فأوهمني أنه مسافر، ثم دخل علينا ونحن...

– وأنتما متلبسان بالخيانة.

– دخل بالسكين وحاول قتلنا، فأمسكناه، ونزع جمال السكين

من يده، وكنت أتمنى أن لا يقتله؛ ولكنه غاب عقله؛ خوفًا من الفضيحة، فسدّد ضربات قاتلة في كل جسده من هول الصدمة ثم هرب، ثم دخل الأولاد وأخذوا يصرخون، حتى تجمع الناس وأبلغوا الشرطة.

- كم عدد الأولاد؟

- ثلاث بنات وطفلان صغيران.

- ألم تفكّري كيف سيتزوج أولادك؟! ألم تفكري في ذلك الزوج التعيس الذي كان يشقى من أجلك؟! لماذا؟ أمن أجل شهوة حقيرة تضحّين بكل هؤلاء؟!

- كفى ما أنا فيه.. أنا لا أستحق الحياة.

- لو بيدي لحكمت عليك بالإعدام الآن.. تحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق.

يدخل العسكري: تم القبض على جمال.

- أين؟

- في الخارج.

- أدخله.

يدخل بخطوات متثاقلة وعيناه في الأرض، ورأسه مطأطأ، وبادٍ

عليه أثر المصيبة التي أوقع نفسه فيها.. تتأمله.. ترى وجهه قبيحًا بل دميمًا.. لا تعرف هل هذا وجهه حقيقة؟ أم تنظر إليه بعين الخيانة التي فعلها؟

- اجلس يا أبا السباع.

- يجلس.

- زوجة أعز أصدقائك حكت كل شيء - أخذت تسرد له أقوالها - هل عندك إضافة؟

- نعم يا هانم.. هي التي أغرتني، كانت تلبس أمامي ملابس مثيرة، لم تحتشم أمامي، ولم تراعِ غياب زوجها.

- هي فقط؟!

- لقد كان يصل ليله بنهاره في العمل الشاق من أجل أن يلبّي مطالبها.

- تنظر إليه وكأنها تريد أن تلتهمه: يحبس أربعة أيام على ذمة القضية.

عليوة: على فكرة يا أفندم، لو ترافع عنهما محامٍ ذو خبرة سيأخذان براءة.

- براءة!!! كيف؟!

– دعوى الزنا يقيمها الزوج وقد مات فتسقط، والقتل دفاع عن النفس.

– زنا وقتل وبراءة، هذا لا يرضي الله، كيف تكون هذه عدالة؟!

– يا هانم سيادتك تعرفين، هذا قانون وضعي، أما حكم الشريعة الإسلامية فلا يطبّق.

– أعلم ذلك.. ولكن ليس إلى هذه الدرجة، وإلا فليذهب القانون إلى الجحيم.

* * *

بدأت الدورة البرلمانية الأولى، وأجريت انتخابات اللجان، وهذه أول جلسة مهمة؛ ففيها سيتم استجواب وزير الزراعة الدكتور «علي نورا» عن قلة الوظائف القيادية للمرأة في وزارة الزراعة، وهذا يعدُّ اضطهادًا لها، وكذلك توزيع الأراضي المستصلحة نسبة المرأة فيه قليلة.

أرسل الوزير أحد مساعديه للرد على الاستجواب؛ بدعوى أن لديه مقابلة مهمة مع وزير الزراعة الإثيوبي.

الدكتورة سحر: سيادة رئيس المجلس، إن هذا يعد استهزاءً بالمجلس ونوّابه، إذا لم يأت الوزير بعد نصف ساعة، فسنطالب بسحب الثقة منه.

يحاول الدكتور سيد حلمي رئيس المجلس تهدئتهن وشرح الأمر لهن؛ ولكن لم يُجْدِ ذلك نفعًا، فاضطر إلى الاتصال بالوزير، وإبلاغه بموضوع سحب الثقة، فأخبره أنه سيأتي بسرعة.

الدكتورة سحر والمعلمة كيداهم واقفتان بمفردهما تتحاوران عن الاستجواب.

– كيداهم: يا دكتورة هل أتيت باسم أمه الحقيقي؟

– سحر: نعم، اسمها نعيمة.. ماذا ستفعلين به؟

– سترين كيف سأفعل بهؤلاء الكذابين الذين يتبرؤون من أمهاتهم؟

يدخل الوزير القاعة، ويصعد إلى مكانه، ويبدأ الاستجواب.

يطلب الوزير الكلمة، ويبدو في قمة الغضب: الاستجواب بسيط جدًّا، وأرسلت مساعدي ومعه جميع الردود التي تزيح اللبس، وكان معي لقاء مهم، فلم أكن في نزهة.

تعلو أصوات الأغلبية معترضين على عدم إدراك النساء

للمسؤولية، وعلى تعاملهن كأنهن في خلاف منزلي.

يتدخل الرئيس لتهدئة النواب والنائبات حتى تبدأ الجلسة.. يعود الهدوء.

المعلمة كيداهم تجلس في أقرب مكان للوزير، وأخذت تغنّي بصوت لا يكاد يسمعه إلا الوزير والأماكن القريبة جدًّا: «أمَّه نعيمه نعمين.. خلّي عليوه يكلّمني».

يضطرب الوزير ويتلعثم في كلامه؛ فقد فهم أنهن بحثن عن اسم أمه الحقيقي، وأنهن سيبتزّونه، وأصابه الرعب أن تفضحه المعلمة كيداهم.

يحاول الوزير ضبط نفسه، وينظر في الورق الذي أمامه، محاولاً التركيز للرد على الاستجواب، وتستمر كيداهم في ترديد أغنيتها بنفس الطريقة، والجالسات حولها يضحكن.

يطلب الوزير من رئيس المجلس أن يمنع الأصوات الجانبية.. يتعجب رئيس المجلس؛ فليس هناك أصوات والقاعة هادئة؛ فهم ما بين مستمع، ونائم، وسابح بفكره في ملكوت الله.

تفضل أكمل يا سيادة الوزير، أجب عن الاستجواب؛ فليس هناك أصوات جانبية.

الوزير: هل أدّعي؟ أنا أسمع أصواتًا من أمامي.

الرئيس: أرجو عدم إزعاج الوزير حتى نكمل الاستجواب.

كيداهم: يا سيادة الرئيس، سيادة الوزير علي ابن الحاجة نورا – تغمز له بعينها – يتهرّب من الاستجواب بالدخول في حوارات جانبية.

الوزير: هذا استهزاء بي وبالحكومة.

كيداهم: أنا لست متعلمة، وربما أخطأت وأنا أتكلم كثيرًا، وإن كان الوزير يحب سماع الأغاني الأجنبية، فأنا أحب سماع أغنية «أمه نعيمه».

تضج القاعة بالضحك، ويتدخل الرئيس: ولماذا ذكر الأغاني هنا؟!

– يوقن الوزير أنه على وشك الفضيحة، فإن كانت مازالت تورِّي؛ ولكنها قريبًا ستُفْصِح وتفضح، فيحاول تدارك الموقف.

الوزير: وماذا تردْن مني يا معلمة كيدانا.. أقصد كيداهم؟ (صوت ضحك عال).

الدكتورة سحر ستذكر المطلوب، وننتظر الاستجابة لمطالبنا.. تفضلي يا دكتورة سحر.

د. سحر: ذكرنا المطلوبينِ في الاستجواب، ولا داعي لإعادة ذكرهما.

الوزير: بالنسبة للأمر الثاني – موضوع الأراضي المستصلحة – فسنراعي ذلك؛ ولكن لابد أن يكون تقديم الطلبات من المرأة مثل الرجل؛ فلا يعقل أن تكون نسبة الطلبات المقدمة من المرأة ١٠٪ وتحصل على ٥٠٪.

د. سحر: سنقوم بتوعية المرأة، وسيتم تقديم طلبات كافية.

الوزير: بالنسبة للأمر الأول، فإن نسبة المرأة في الوظائف الحكومية وصل إلى ٦٠٪.

د. سحر: نحن نتحدث عن وزارة الزراعة فقط، أما الحكومة فيتحدث عنها رئيس الوزراء.

كيداهم: سيادة الوزير علي نعـ... آسفة: علي نورا، الموضوع طال، وأخذ وقتًا طويلاً.

الوزير: سنسعى إلى وصول المرأة إلى النسبة المطلوبة في الوزارة على مراحل؛ حتى لا يحدث خلل في العمل.

د. سحر: شكرًا سيادة الوزير.

كيداهم تطلق زغرودة، فيضحك الجميع.

رئيس المجلس: يا معلمة كيداهم، نحن لسنا في المذبح.. نحن في مجلس الشعب.

كيداهم: آسفة يا سيادة الرئيس.. لم أستطع إخفاء الفرحة بنجاح الاستجواب.

* * *

تستيقظ عصمت مفزوعة على ذلك الحلم – أو الكابوس – الذي يأتيها منذ سنوات طويلة.. يقف أمامها رجل ويقول: أنا أبوك يا جاحدة، ويتركها ويسير.

حكت لأمها ذلك الحُلم أو الكابوس بعدما أتاها أكثر من مرة.. طلبت منها أوصاف ذلك الرجل.. حكت لها أوصافه.

ليلى: هذا كابوس فلا تهتمي، والشيطان لن يجد أفضل من جلال ليتمثل به.. ثم تأخذ تعدِّد خياناته وأخلاقه الشريرة التي هي أخلاق جميع الرجال بلا استثناء.

وبعد أن أكثرت أمها من الاستهزاء بها وبتفكيرها، صارت لا تحكي هذا المنام لأحد.

كانت آخر مرة رأت أباها فيها – قبل أن يتركها يتيمة – وهي

في السادسة من عمرها، تحاول تذكُّره؛ ولكن هيهات! فالمرسوم في ذهنها صورة شيطان رجيم.

تقوم من سريرها لمتابعة نشاطاتها اليومية، ومتابعة التقدُّم المأمول في مجال حقوق المرأة ومساواتها بالرجل في كل شيء.. كل شيء.

* * *

الأستاذ رزق جالس على مكتبه يقرأ قاعدة المعلومات باهتمام وانشغال، يطوي الأوراق، ثم يتوجه للسكرتيرة.

ممتاز جدًّا.. تابعوا أي إضافات جديدة.. اطبعي على الطابعة كل المعلومات عن سوزي المهندس ونرمين علوي، وأرسلي لي الثلاثة الذين ذكروا أنهم قرؤوا في علم النفس.

– حاضر يا أفندم.

– تدخل بالأوراق وخلفها الثلاثة.

– تفضلوا.. اجلسوا.

– عندنا بعض القضايا سيحكم فيها قاضيات، وقد جمعنا معلومات قيّمة عنهن، وأريد من كل واحد منكم أن يضع سيناريو

للمرافعة والمعاملة مع كل واحدة منهن.

– يسأل أحدهم: كيف يا أفندم؟

-كأنك تخرج فيلمًا.. تضع السيناريو بحيث تكون النهاية لصالحنا؛ مثال: عندنا قاضية لا تنجب وكبرت في السن، وتحب الأطفال جدًّا، نأتي لها بأطفال للمتهم، شكلهم جميل، ونلبسهم ملابس نظيفة، ونجعل لهم دورًا في المرافعة. (يضحك بصوت عال).

وعندنا قاضية كانت متزوجة عرفيًّا أيام الكلية، نأتي بالولد الذي تزوجها ونجعله يترافع أمامها مثلاً.

وعندنا قاضية كانت متحررة أيام الكلية، وكانت «دلّوعة» أبيها، وكانت لا تراعي القيم والتقاليد ووضع أبيها الاجتماعي، وكانت ملابسها فاضحة.. أتينا بصورها وزملائها وفضائحها.. وهكذا.. فهمتم.

– فهمنا يا أفندم.

– أرجو أن تأخذوا هذه المعلومات عن هؤلاء القاضيات، وتعدّوا دراسة وافية أو سيناريو في مدة لا تزيد عن أسبوع، والسيناريو الذي سيطبّق لصاحبه مكافأة كبيرة على قدر نجاحه – يضحك – وربما أعطيه لمخرج من زملائي ليجعله فيلمًا.. تفضلوا.

* * *

تأوي هبة إلى فراشها.. أرق رهيب، وصورة الجثة والدماء لا تفارق مخيّلتها.

كان يومًا شاقًّا.. تمر ساعتان.. تحاول مغالبة النوم؛ ولكن هيهات!

يرن جرس التليفون.. تنظر في ساعتها.. من الذي يتصل الساعة الثانية صباحًا؟ اللهم اجعله خيرًا.

- آلو.. الآن؟ ألا يمكن الانتظار للصباح؟

- حاضر يا أفندم.. تضع السماعة.

- تبًّا لهذا العمل! أذهب الآن لمعاينة جثة وقتل؟!

- ترتدي ملابسها بسرعة.. تتذكر منظر الجثة التي رأتها أمس، يا لها من مناظر بشعة! لكن لابد أن أثبت ذاتي.

- سيارة الشرطة تطلق تنبيهًا.. تنزل هبة بسرعة.. تركب السيارة.

- أين المعاينة؟

- قريبًا من هنا.

- ماذا حدث؟

- جريمة قتل بشعة.. امرأة قتلت زوجها وقطعته، ووضعته في أكياس، وألقتها تحت الكوبري.

- هزّتها الكلمات.. امرأة تفعل ذلك؟!

- يقول أحدهم: يا هانم كل مصائبنا من وراء النساء. (يضحك المرافقون).

- تشعر بطعنة في كبريائها.

- تركب السيارة بجوار الضابط بعد المعاينة ورؤية الجسد مقطعًا في مشهد رهيب، ومعها الأستاذ عليوة.

- تسأل الضابط: كيف توصلتم للجانية بهذه السرعة؟

- شك أحد عملائنا في امرأة تتلفت حولها بصورة مريبة وتلقي أكياسًا، ثم تذهب وتعود بعد فترة بأخرى، فبلّغ عنها، وبسؤالها اعترفت بكل شيء، وهذا المكان شهد حوادث مشابهة قبل ذلك.

- كيف؟

- امرأة تقتل زوجها وتقطعه في أكياس.. ألم تقرئي في الجرائد عن هذه الحوادث؟

- نعم، قرأت عن بعضها.

- لا أعلم ماذا حدث لنساء هذا الزمان؟! إن الرجال يستحيل أن يفعلوا ذلك!

- كأنه صفعها على وجهها..كيف؟ ألا يرتكب الرجال جرائم؟!

- أقصد أن يقتل زوجته أم أولاده ويقطّعها إربًا ويلقيها في أكياس بلاستيك.

- ولكن ربما في حال الخيانة يفعل ذلك.

- حتى حال الخيانة يقتلها فقط.. أنصحك أن تقرئي في علم النفس جيدًا، وطبيعة المرأة والفرق بينها وبين الرجل.. طبعًا ستقولين: هذا تفكير المجتمع الذكوري - يضحك – اقرئي في ذلك لعلماء النفس في الغرب؛ فهم أقرب إلى تفكيركن من مجتمعنا.

- من تقصد بـ«كن»؟

- أقصد مجالس المرأة ولوبيّات المرأة.

- تقف السيارة أمام النيابة.. تفضلي.

- شكرًا.

- تجلس هبة في مكتبها منتظرة دخول المتهمة، والمناظر البشعة لأشلاء الجثة تؤثّر في نفسيتها أيما تأثير.. تضع رأسها بين يديها

تفكّر في وضعها الجديد الذي كانت تظن أنه انتصار على المجتمع الذكوري سيجعلها في قمة السعادة، ويمر بذهنها المناقشات التي كانت تحدث في المجتمع.

يقطع تفكيرها طرق على الباب.. يدخل الأستاذ عليوة.. يجلس بجوارها على كرسيه، وتدخل وراءه المتهمة.

- اجلسي.

- تجلس.

- أعط بياناتك للأستاذ عليوة، ثم احكي الحكاية من أولها لآخرها.

- هذا زوجي الثالث.. طلّقت من الأول بعد زواج سنتين، وكان زواجنا بعد قصة حب، وبمجرد الزواج بدأت المشكلات، واتضح أن الحب مجرد صروح من خيال تهوي عند اصطدامها بالواقع لدرجة أنني كنت أتمنى أن يكون زواجنا بداية معرفتنا.

بمجرد زواجنا صار دائم الشك فيّ، فكان يحدّث نفسه أنني إذ أحببته وقضيت معه زمنًا في الحب والغرام، فما المانع أن أفعل ذلك مع غيره، بعد الزواج أو قبله؟ وانعدمت ثقته في، كلما سمع أو قرأ عن خيانة زوجية تصور أنني كذلك، وعاد بذاكرته إلى أيام الحب،

فصارت ذكريات حبِّنا وما كنا نقضيه من وقت في الحب والهيام دليلاً على استعدادي للخيانة، واكتشفت أن كل الرجال كذلك، كل زميلاتي اللاتي عشن قصة حب قبل الزواج وتزوجت من حبيبها، صارت في عين حبيبها بعد الزواج مشروع خائنة.. وعليه كان لابد من الفراق والطلاق.

- بعد الطلاق مررت بأيام صعبة وإشاعات لا حصر لها، فاضطرت أن أتزوج من رجل متزوج وعنده أولاد.

كان رجلاً بمعنى الكلمة.. يعدل بيني وبين زوجته الأولى، ولا يسمح بأية مشكلة تحدث.. كان قويَّ الشخصية جدًّا، وأنجبت منه ولدًا وبنتًا، وكانت حياتي مستقرة، إلى أن أحرقتني نار الغيرة مع سماع نصائح صديقاتي وأهلي، فبدأت أسعى في طلاق زوجته الأولى وخراب بيتها، وعمل السحر ليكرهها، وكان عقاب الله أن خرب بيتي أنا.

كان لا يسمح لي أن أعمل مهما حدث، وكان يوفر لي مطالبي، وكانت نصائح صديقاتي أن أستقلَّ ماديًّا ولابد أن أعمل، وكان يأبى ذلك، إلى أن وصل الأمر أن أظهرت له التحدّي، فقال: لست الذي تحكمني امرأة، وهو كذلك فعلاً، وفي مرة رفعت صوتي

عليه، فطلقني.

ويا ليتني قبّلت قدميه حتى أظل معه، ولكني من أسقيت نفسي كأس الشقاء.

أعطاني كل مستحقاتي، وكان ينفق على ولديَّ، ثم خرجت للعمل كما كنت أتمنى.

- هل معك شهادة؟

- نعم، معي دبلوم تجارة.

- أنتقل من سنترال إلى حضانة إلى غيرها، وهكذا، وشقيت بين العمل والمواصلات وبين تربية ولدي، حتى تقدم لخطبتي سيد.

- سيد هذا هو القتيل؟

- نعم، فوافقت سريعًا حتى أستريح من عناء العمل والشقاء الذي سعيت إليه بنفسي، مع أنه كان يصغرني بعام، ومع أن طليقي سيأخذ ولديّ؛ ولكني كنت أحتاج إلى رجل يسترني ويحميني وأعيش في كنفه.

تزوجته وظهر عكس ما كنت أتمنى.. كان يضطرني للعمل حتى أنفق على نفسي.. حتى وصلت إلى قناعة أنني رجل البيت وتزوجت امرأة لا رجلاً يسترني.. كان ضعيف الشخصية، مهما

أفعل به لا تتحرك فيه نخوة الرجولة، أسبُّه وربما ضربته بيدي، حتى كرهته كرهًا بحجم الكرة الأرضية.

- زوجك السابق المتسلط كان أحب إليك ممن يعاملك كإنسان؟

- نعم، إنني امرأة وأحتاج لزوج يشعرني بأنوثتي، وكمال لذة المرأة أن ترى زوجها رجلاً.. كم كنت أشعر بلذة عندما يلكمني بيده على كتفي عندما يرى أني أخطأت خطأً كبيرًا؛ فكان في ضعفي مع قوته لذة لا توصف.

أما هذا، فكان لا يعدو عن كونه رجلاً بالاسم يريد امرأة تستره.

- ولكن تقتلينه وتقطعينه؛ أيَّ قلب تحملين؟!

- إن المرأة إذا كرهت، فكرهها يكفي لتدمير العالم إن استطاعت.

- كأنها ألقت عليها ماء باردًا في ليلة شاتية: تحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق.

* * *

المحكمة كخلية نحل.. عمل دائب وحركة في كل اتجاه؛ فالمتهم شخصية كبيرة، وبراءته تعني ملايين الجنيهات في حساب الأستاذ رزق، كان على علاقة زنا براقصة، فصوّرت لقاء بينهما وسربته لوسائل الإعلام حتى يضطر لقبول زواجها عرفيًّا؛ ولكنها كانت ساذجة، فقتلها بنفسه انتقامًا منها، وأنكر أنه الذي في الفيديو، وأن الفيديو ملفّق...إلخ، وطبعًا الصحافة والإعلام معه، رهن إشارته، أو رهن أمواله.

- أخو المتهم للأستاذ رزق: جاهز يا أستاذ؟

- لا تخش شيئًا.. كل شيء جاهز.. وبإذن الله براءة.. جهّز الأتعاب.

- نحصل على البراءة، وبعد ذلك كل شيء يهون.

- المهم.. فهّمت أخاك ماذا يفعل؟

- نعم، سيدخل وفي يده المصحف والمسبحة، ويظل في ذِكْر طوال الجلسة.

- ممتاز.

- ينادي على أحد مساعديه: هل أتيت بالأطفال؟

- نعم يا أفندم، خمسة أطفال: ثلاثة أولاد وبنتان، منهم اثنان

توءمان.

- وملابسهم وشكلهم؟

- كما القمر.. انظر سيادتك هناك.

- ما شاء الله.. شكلهم كالقمر فعلاً.. المهم الأداء.

- درّبناهم وهم في كامل الاستعداد، وسترى المستشارة وهي تبكي.

- وزوجة المتهم.. هل فعلت ما طلبته؟

- نعم، أتينا بفتاة من معهد التمثيل تشبهها.

والفروق بينها وبين زوجته أزلْناها بالمكياج، فصارت كأنها هي، ودربناها على المشهد مع الأطفال، وأتينا لها ببطاقة زوجته.

- يعني كل شيء جاهز؟

- تمام يا أفندم.

- صوت الحاجب: محكمة.

- تنتبه كل المحكمة، ويقف الجميع، وكل واحد يأخذ مكانه.

تدخل المستشارة ومعها قاضيتان.

الأستاذ رزق ينظر بطرف عينه في كل مكان، ولا يصغي لوكيل النيابة وطلبه الإعدام لموكله، حتى إذا أتى دور الدفاع هبَّ كالأسد

يتحدث.

السيدات المستشارات، هل هذا الحمَل الوديع يقتل؟! هل هذا الصوّام القوام، المسبّح آناء الليل وأطراف النهار يزني؟!

هل تعلمن كم يفتح من البيوت؟ انظرن إلى هؤلاء الفقراء (عدد كبير من أناس ملابسهم رثّة يرفعون أيديهم كأنهم يبتهلون إلى الله ويدعون للمتهم) من سينفق عليهم بعده؟ إنها مؤامرة على الفضيلة، إن أناسًا من شياطين الإنس قد تآمروا عليه حتى يقضوا على هذا الرجل الفاضل الذي لا نستطيع أن نحصي مآثره.

يستمر في حديثه والمتهم يقرأ في المصحف والمسبحة في يده.. وأثناء المرافعة يجري أصغر الأطفال الخمسة، ويصعد إلى منصة القضاء من الجانب، ويقول للمستشارة: «طنط»، لا تحرميني من أبي.. أنا أحبه، ولا أستطيع أن أعيش بدونه.

تحمله وتحتضنه وتقبّله: لا تخف يا حبيبي.

في هذه اللحظة يتبعه باقي الأطفال، ويكررون نفس الكلام ويبكون، حتى تنزل دمعة من عينيها.. ينزلهم الحاجب بقسوة.

تنهر المستشارة الحاجب: برفق، انزلوا يا حبايبي.

ينتشي الأستاذ رزق، ويشعر أن السيناريو يمشي في طريقه

المرسوم.

يطلب شهادة زوجة المتهم.. تبدأ الزوجة – الممثلة – في الشهادة.

يا سيادة المستشارة، إن زوجي لا أجد من الكلمات ما يستطيع وصفه، إنه كان نعم الزوج؛ بل إنه أبي وأخي وصديقي وروحي وحياتي، لا أتصور أن أعيش بدونه، فالحكم عليه هو حكم علي وعلى أولادي...

تستمر في الحديث عن أوصافه وتقواه، وحفظه للقرآن وصلاته وصيامه ببلاغة واضحة.. كان قد أعدّها لها رزق.

- المستشارة: أنت خريجة لغة عربية؟

- لا، ولكني – كزوجي – أحب الأدب والشعر.

- واضح.

- تكمل حتى تنتهي، وقد كاد كل من بالقاعة يبكون.

- يطلب المرافعة الأستاذ رزق.

- إن هذه القضية يا سيادة المستشارة ملفَّقة من أعداء النجاح، ومن أعدائه في مجال الاستثمار، الذين يريدون تشويه هذا النموذج الطاهر، الذي وهب حياته وأمواله لفعل الخيرات.

يستطرد الأستاذ رزق دفاعه لإبطال الأدلة وبيان براءة موكله.

* * *

يجد عماد ورقة بخط عصمت، مكتوبًا فيها بعض التعريفات والمصطلحات التي تحفظها؛ لتُظهر ثقافتها في مجال المرأة.

يقرأ في أول سطر:

تقول (أوكلي): «إنَّ الأمومة خُرافة، ولا يوجد هناك غريزة للأمومة، وإنما ثقافة المجتمع هي التي تصنع هذه الغريزة؛ ولهذا نجد أنَّ الأمومة تعتبر وظيفةً اجتماعية».

تدخل عصمت وهو ممسك بالورقة.. ينظر إليها نظرة مفزعة: ما هذا يا عصمت؟!

- هذه تعريفات لمصطلحات نستخدمها في مجال حقوق المرأة.

- هل تأخذين وسيلة لمنع الحمل؟

- لماذا هذا السؤال؟ وهل يعقل أن آخذ وسيلة ونحن نمر على الأطباء من أجل الحمل؟!

- أخاف أن تكوني تخدعينني.

- كيف تفكر في ذلك؟! ولماذا أخدعك وأنا أشتاق أكثر منك

للأولاد؟

- أليست الأمومة خرافة يا هانم؟!

أسقط في يدها، ولم تعرف بم تجيب؟

- ردِّي يا هانم، أليست الأمومة خرافة؟! هذه آراؤك، وهذا نتيجة ثقتي فيك.. ماذا تعرفين أنت عن الأمومة؟

عصمت: ليس الأمر كذلك يا عماد، هذه مجرد تعريفات تثقيفية، وأنا أحلم كل ليلة باليوم الذي أسمع فيه كلمة «حامل»؛ ولكن هذا قدر الله، ولا دخل لنا فيه، وكما علمت من الأطباء أنه لا عيب عندي ولا عندك، وفي أي وقت سيحدث حمل عندما يشاء الله – تنزل دمعة – إنك لا تعلم ما يحدث لي كلما سمعت أن فلانة حامل.

عماد: لقد رأيت جدتي، وكنت أتمنى أن تحيا حتى تريها؛ لتعلمي ما معنى الأمومة.. مرض جدي، وفي مرضه باع كل ما يملك، وترك جدتي وأبي وإخوته دون طعام.. لم تجد عملاً إلا أن تعمل خادمة في البيوت وتنظف الشقق وتبيع في الأسواق؛ حتى ربّتهم وعلّمتهم، مع أنها كانت جميلة، وعرض عليها الزواج، ولم تنظر إلا لأولادها، ولم تعبأ بحالتهم قبل مرض جدي.. ضحّت

بشبابها من أجل أولادها.. كانت شخصيتها قوية.. كنت أرى أبي يصيبه الرعب إذا نهرته، ولا يستطيع أن ينظر في عينيها.. هذه هي الأمومة.

أظنك لو كنتِ مكانها كنت ألقيت أبناءك في الشارع، وتزوجت.

تصمت عصمت.

يكمل عماد: آه يا عصمت! صرت أخاف أن يصيبني مكروه أو يفقرنا الله، فلا أظنك من تضحّين، فكل ما علّمته لك أمك: الحقوق، أما الواجبات والتضحية، فلا تعرفان شيئًا عنها.

عمومًا: أمامك سنتان لتنجبي، تصرّفي: طفل أنابيب، أدوية، ما تستطيعين... وإلا فلن أضحّي من أجل من لا تعرف معنى التضحية.

* * *

النواب ملتفّون حول وزير الاستثمار كعادتهم مع الوزراء.. كل يريد توقيعه على طلبات لإنهاء مصالح لأبناء دائرته أو معارفه.. والدكتورة سحر والمعلمة كيداهم تعدّان العدة

للاستجواب.

الاستجواب حول إلزام المستثمرين بإعطاء المرأة مثل أجر الرجل المكافئ لها في المؤهل الدراسي؛ لأن المستثمرين – في رأيهن – يبخسون المرأة حقها.

كانت كيداهم قد بحثت عن اسم أم الوزير الحقيقي وعرفت أنه «بهيّة»، فقامت بعمل أغنية «بهية وعيون بهية» كنغمة لهاتفها المحمول.

رئيس المجلس: ليتفضل الدكتور علاء فاتن للجواب عن أسئلة النائبات والنواب.

يصعد الوزير إلى المنصة، وكيداهم تمسك بهاتف زميلتها، حتى إذا ما بدأ الكلام ترنّ على هاتفها، فيسمع الوزير الاسم، فيضطرب خوفًا من الفضيحة.

يستعد الوزير للكلام.. القاعة في هدوء وصمت..ترن كيداهم.. ينطلق صوت الأغنية «بهية وعيون بهية» من هاتفها.

رئيس المجلس: ما هذا الصوت؟! نرجو إغلاق جميع الهواتف.

كيداهم: آسفة يا سيادة الرئيس، نسيت أن أغلقه.

الوزير: يشعر باضطرابات في معدته، فيستأذن لدخول الحمَّام.

بعد خروج الوزير.. النواب ما بين مشفق وشامت ومستهزئ، والنائبات يتضاحكن فيما بينهن، ويثنين على كيد كيداهم وعقلها وذكائها، ورئيس المجلس أدرك أن موضوع اسم الأم أصبح سيفًا مصلتًا على رقاب الوزراء والحكومة.

يعود الوزير تعلوه حُمرة الخجل، ويستعد للبدء في الكلام.. يلمح بطرف عينه كيداهم وتربُّصها به.

السيدات والسادة، الحضور الكرام: إن موضوع التفاوت في الأجور بين الرجال والنساء في كل الدنيا.. انظروا إلى أوربا وأمريكا.. المرأة هناك لا تكاد تحصل على نصف راتب الرجل.

د. سحر تقاطع الوزير: نحن ليس لنا شأن بالدول الأخرى.. نحن الآن نقود حركة الدفاع عن حقوق المرأة في العالم، وكلامك ليس دقيقًا؛ ففي السعودية المرأة راتبها مثل الرجل؛ أي: إن هناك دولاً فيها مساواة الأجور.

الوزير: بدايةً، إني أعجب أنكن تنتقدن السعودية ليل نهار في قضايا حقوق المرأة، ومع ذلك تستدللن بها الآن، وتتخذنها قدوة.

عمومًا المرأة السعودية لا تعمل إلا في مجالات محددة؛ مثل التدريس والطب للنساء، ولا تعمل كعاملة في الشركات

الاستثمارية مثل المرأة هنا وفي أوربا وأمريكا وغيرها.

الحضور الكرام، دعونا نتحدث بصراحة، إن المستثمر يريد العامل الذي يربح من ورائه، وإذا فرضنا على المستثمرين نظامًا يتعارض أو يقلّل أرباحهم، فسيهرب المستثمرون.

– د. سحر: تقصد أن المرأة إنتاجها أقل من الرجل! أنا أعجب أننا بعد كل هذا ما زال عندنا وزير له هذه العقلية الرجعية؛ إن المرأة أثبتت أنها ليست مثل الرجل فقط؛ بل تفوقه.

– يعلو لغط وأصوات اعتراضات من جانب النواب.

– الوزير: أنا دوري توضيح الحقائق بعيدًا عن الشعارات، وبعد ذلك ما يراه المجلس أنفّذه، وليكن ما يكون.. لا تنسوا – أيها السيدات والسادة – أن المرأة لا بد من مراعاة حملها وولادتها وإجازة الرضاعة وهلم جرًّا.

– فجأة يعلو صوت «بهية وعيون بهية».. يعلو صوت الضحك.. يتدخل رئيس المجلس: قلنا مائة مرة: أغلقوا الهواتف.

كيداهم: آسفة يا سيادة الرئيس.. الظاهر هاتفي أصابه عطب.. سأغلقه، ولو حدث ثانية سأعطيه هدية لسيادة الوزير، أو للسيدة فاتن والدته.

رئيس المجلس: اهدئي يا كيداهم حتى ننتهي من هذا الاستجواب.. أكمل يا سيادة الوزير.

الوزير: أنا أقصد أن المستثمرين يريدون عمالاً يعملون ويربح من ورائهم، فإذا فرضنا عليهم أجرًا للمرأة يتساوى مع أجر الرجل، وهو ليس عنده إجازات وضْع وخلافه، فلن يسمحوا بعمل المرأة لديهم.

د. سحر: ولكن كما ندعمهم بالكهرباء والغاز وخلافه، فلابد أن يردُّوا جزءًا من هذا بمساعدة المجتمع وركنه الركين المرأة.

الوزير: هذا وعد مني بأني سأفعل ما بوسعي للضغط على المستثمرين حتى ينفذوا هذه المطالب.

– تصفيق حاد.

* * *

احتفال في المكتب بعد الحصول على البراءة، وكل المحامين – داخل المكتب وخارجه – يشيدون بعبقرية الأستاذ رزق، وأنه يؤسس مدرسة جديدة في المحاماة.

– بعد نهاية الاحتفال وذهاب الضيوف، جلس الأستاذ رزق

مع بعض معاونيه لبحث قضية كبيرة جدًّا.

هي شبكة دعارة كبيرة، ورؤوسها من سيدات المجتمع.

الأستاذ رزق: أنا أعلم أن منكم من لا يحبّذ الدفاع عن شبكات الدعارة ويعتبرها حرامًا؛ ولكن يخفى عليكم نقطة مهمة: أننا نطعن في إجراءات الضبط؛ وذلك لأننا لو تركنا الشرطة لدخلت بيوتنا ولفّقت لنا القضايا، وهذا أمر مهم، ومصلحة معتبرة، ودفع للمفسدة.

- أحد المحامين: الله الله على العلم والتقوى.. زادكم الله علمًا وتقوى يا أستاذ الجيل.

- رزق: شكرًا يا ابني، المهم القضية لو دخلت الدوائر التي فيها القضاة متدينون سنخسر القضية يقينًا.. هناك دائرة لو حكمت في القضية سنحصل على البراءة.. طبعًا تعرفونها.. إنها دائرة المستشارة سوسو الجندي.

- يرتفع صوت الضحك من الجميع.

يقول أحدهم: أنا لا أعلم كيف لمستشارة أن يكون اسمها سوسو؛ ولكن ما يهوّن الأمر أنها تشبه الراقصات.

أحدهم: على فكرة، كانت في بداية عملها كمستشارة في

الاستراحة مع القضاة، ففوجئ القضاة بها تجلس معهم بملابس البيت، أو بمعنى أصح بقميص النوم، وتمسك في يدها سيجارًا، فدخل كل واحد منهم غرفته سريعًا، وخوفًا من الفضيحة؛ طلبوا جميعًا إما نقلها أو نقلهم، فتمت الاستجابة سريعًا وتم نقلها.

رزق: مشكلة سوسو معقّدة، ولا أحد يستطيع التصرف فيها؛ فهي ابنة مستشار، ومدلَّلة جدًّا، لدرجة أنها لا تراعي أعراف المجتمع ولا قيمه، وتؤمن بالقيم الغربية، فكانت في الكلية تتصرف بجرأة عجيبة، فترقص ديسكو وبلدي مع زملائها، وملابسها فاضحة، وعندما تقدمت للقضاء قُبلت مباشرة بسبب وضع أبيها.

ومشكلة القضاة أنهم عندما تحدثوا عن ملابس القاضيات، تحدّثوا عن النقاب فقط؛ فالمنتقبات لا بواكي لهن، ويسهل على أي أحد التهكّم عليهن والسخرية من ملابسهن، ومن يتحدث عن ملابس أخرى للقاضيات، فكأنه دخل عش الدبابير، فسيعلن الغرب ومنظمات المرأة وحقوق الإنسان الحرب عليه.

وطبعًا لن يستطيع القضاة فرض الحجاب؛ لأن في هذا تمييزًا ضد غير المسلمات، فاكتفوا بأن تكون الملابس محترمة غير النقاب، وطبعًا سوسو تعتبر المايوه محترمًا جدًّا.

- يرتفع صوت الضحك.

عندما أثار بعض القضاة موضوع ملابس القاضيات، قامت ثورة عليهم من منظمات المرأة والمجتمع المدني المموَّل من الخارج، بالإضافة للمنظمات الدولية، واتهموهم بالتخلف والرجعية ... إلخ.

المهم هناك من سيسهّل تحويل القضية إلى سوسو، والباقي سهل؛ فهناك من المتهمات من سيدات المجتمع من تعرف سوسو جيدًا.

* * *

- تذهب هبة إلى منزلها ونفسيتها محطَّمة من هول ما ترى.. أصبحت تكره الليل.. يقتلها الأرق، ويمر الليل بطيئًا ثقيلاً، تنتظر في كل لحظة هاتفًا يدعوها لرؤية الأشلاء والدماء.

أخذت تسترجع بفكرها كل ما يحدث.. يقتحم سؤال على فكرها: لماذا في الأغلب القاتل امرأة؟ لماذا لا يعرض علي قضيةٌ القاتل فيها رجل؟ هل يمكن أن تكون مؤامرة للقضاء على نجاح المرأة في هذا المجال؟ هل يريدون قهري، ومن ثم قهر المرأة؟

تتصل هبة بالناشطات في مجال حقوق المرأة، طالبة الاجتماع؛

لمناقشة التجربة، وتشرح لهن خطورة الموقف، ويحدَّد الموعد بسرعة على أن تحضره السيدة عصمت.

يبدأ الاجتماع بحضور جميع وكيلات النيابة.. تبدأ السيدة عصمت بالتحدث:

- إننا في كل يوم نحقق نجاحًا جديدًا؛ ولكن هناك بعض الصعوبات التي لابد أن نتغلب عليها، وما يحزنني كثرة الشكاوى، والتخاذل عن قضيتنا، وعدم الصمود في وجه الصعوبات التي يضعها أمامنا المجتمع الذكوري؛ فأكثر من زميلة تقدّمت باستقالتها ولم تصمد، وكانت سببًا في وصم هذا المكسب التاريخي بالفشل؛ فكل وكيلات النيابة يشكون من جرائم القتل ورؤية الدماء، وكأنهن لا يعرفن أن ذلك سيحدث، وحدثت مناقشات وحوارات مع المجتمع الذكوري، وأعلنّا التحدي، وخضنا التجربة، فهل نعلن فشلنا ونصبح أضحوكة العالم، ونحن اللاتي نستدعي الفشل.

هناك زميلة ذهبت لمعاينة جريمة وكانت حاملاً، فأسقطت الجنين، وتم نقلها للمستشفى وكادت تفارق الحياة، ثم استقالت، مع أننا قد اتفقنا سابقًا على عدم الحمل في هذه المرحلة الحرجة، والأفضل عدم الزواج الآن حتى نتفرغ لنيل مكاسب أكثر؛ وذلك

حتى نقضي على نقاط ضعف المرأة التي يأخذونها علينا.

وأخرى أغمي عليها حين رأت الأشلاء والدماء، والحوادث المشابهة كثيرة.

ترفع هبة يدها طالبة الحديث: هناك أمر خطير لا بد من دراسته، إن كل حوادث القتل التي تأتيني القاتل فيها امرأة، وكأن الرجال لا يقتلون، وربما كان هذا توجيهًا من القيادات الذكورية حتى يستقر في العقل الجَمْعي للمجتمع أن المرأة هي سبب المصائب كما يقولون.

- أصوات همهمات وأحاديث جانبية يُسمع منها بعض كلمات مثل: «الرجال هم القتلة»، و «هم المتسلطون الذين يقهرون المرأة الضعيفة».

- يستقر الرأي على الاتصال بوزير العدل أثناء الاجتماع.

- عصمت: آلو.

- وزير العدل: أهلاً وسهلاً يا أفندم.. مرحبًا بقائدة المجتمع نحو الرفاهية والتقدم.

- نحن في اجتماع الآن، وقد أصابنا الشك جميعًا في القضايا التي تعرض على وكيلات النيابة... أخذت تشرح له الأمر.

- الوزير باستغراب: وهل نحن الذين نتحكم في الجرائم؟! إن ما يحدث من الجرائم نحقق فيه، وبالنسبة لأمر الاستهزاء بالوكيلات سأصدر أمرًا بالمبالغة في احترامهن، ومن يتلفظ بكلمة لا تعجب الوكيلة، نحوّله إلى محاكمة.

- عصمت: لا لا.. ليس إلى هذا الحد، لكن نرجو تحويل القضايا لهن التي يكون القاتل فيها رجلاً.

- تأمرين يا أفندم.

* * *

تبدأ الجلسة.. تدخل المستشارة بملابس فاضحة كأنها مذيعة في القنوات اللبنانية، ومِشيتها ونظراتها مثيرة كأنها في عرض أزياء.

- يبدأ الأستاذ رزق في مرافعته.. يفاجأ بالمستشارة تخرج سيجارًا وتأخذ نفَسًا.. كاد أن يرتفع صوته بالضحك، ولكنه تدارك الموقف.

كان محور دفاعه عن إبطال إجراءات الضبط، وأن هذه الشبكة من سيدات المجتمع، وكن في حفلة ديسكو بملابس خاصة، والرجعيون يعتبرونها فاضحة، وهؤلاء الرجعيون يريدون أن يمشي

الناس كما يريدون، فلا ترويح عن النفس، لا غناءَ، لا رقص، ولو كانت هذه القضية في أوربا لاعتبرت قمة التخلف.

نظرت سوسو إلى القفص فرأت بعض معارفها.

- أكمل الأستاذ رزق مرافعته والمستشارة لم تدع السيجار طوال الجلسة.

* * *

اليوم جدول أعمال مجلس الشعب لا يهم المرأة، والغياب كثير، والحاضرات ما بين نائمة، ومتحدثة مع جارتها عن أحدث أدوات التجميل والملابس، والمعلمة كيداهم جالسة في مقعد خلفي؛ فلا دور لها اليوم، وبجوارها مدام حنان، فأخذت تحادثها كي تقتل الوقت، بدلاً من أن تنام فيصوّرها أحد المتربصين بها، ويفضحها في الإعلام.

كيداهم: ما لي أراك مهمومة دائمًا؟ وعندما تتكلمين لا همَّ لك إلا سب الرجال، وبالذات موضوع تعدد الزوجات؟

حنان: الرجال جنس خائن، وعندهم شهوة قهر المرأة.

كيداهم: حتى أبوكِ وإخوتك؟

حنان: أبي كان حنونا جدًّا.

كيداهم: ألم يكن من جنس الرجال؟!

حنان: أفهم قصدك، والله أنا أصبحت معقّدة نفسيًّا، وأفكّر كثيرًا في الانتحار.

كيداهم: أعوذ بالله، لماذا؟

حنان: سأحكي لك حكايتي، وأرجو أن تجعليها سرًّا بيننا؛ لأنني لو لم أحك لأحد سأنفجر وأموت.

كيداهم: سرُّك في بئر، وأعدك أن أحل لك مشكلاتك ما استطعت.

حنان: كان زوجي خلوقًا، وكنتُ أحبُّه كثيرًا؛ وكان يحبني بل يعشقني، وكان يتلمّس رضاي، ولا يفعل أيَّ شيء يغضبني، ويبذل ما في وسعه لسعادتي وهناءتي، فكانت حياتنا سعيدة، ولا يُكدِّر صفوَها أيُّ شائبة، عدا بعض الاختلافات اليسيرة والمشكلات الصغيرة التي كانت تمرُّ بسلامٍ في كلِّ مرَّة.

وفي أحد الأيام طلبني للحديث معي في أمر مهم.. قال: حنان، أنت حبيبتي وصديقتي ورفيقتي، وشريكة كفاحي، ولكن هناك أمر أباحه الله تعالى لي، وأريد أن أفعله.

أحسست أن هناك أمرًا صاعقًا، سألته: ما هو؟

قال: لي قريبةٌ مات عنها زوجُها، وظروفها سيئة جدًّا، وأريد الزواج بها، وأعدك أنّي لن أهضم حقوقك، وسأعدل بينكما، والله يعلَم كم أحبك!

فصُدمت من كلامه العجيب، وانفَجرتُ في وجهه كالبركان الثائر، وكاد يغمى علي من شدة الغضب، وأخذت أصيح، ودخلت في نوبة بكاء، ثم صحت به: أي أسباب تلك التي تجعلك تدمر حياتي؟! أي حب هذا الذي تحبُّني؟! هل تظنني ساذجة؟!

ظل ينظر إلي بهدوئه المعتاد وهو صامت.

أخذت أساله: لماذا تريد أن تقتل أنوثتي؟! ماذا وجدت فيها ولم تجده عندي؟!

أخذ يتحدث بهدوء عن حبه لي، ويعترف بعدم تقصيري معه.

ثم خيّرته بين زواجه هذا وبين طلاقي، وتركت له البيت إلى بيت والدي، منتظرة اختياره، فأتى البيت محاولاً إقناعي، فلم أستجب، أرسل المعارف والأصدقاء، فكان ردي: عليه الاختيار، ولا حل ثالث.

كيداهم: وماذا كان رأي والدك؟

حنان: نصحني أن أرضى بقدر الله، وأنه بمعاملتي وذكائي أستطيع أن أستردَّه، أو أن أعيش سعيدة في حال زواجه، لكني غرقت في لجَّة العند العميقة، وخيَّرتُه: إما الطلاق وإما الخلع.

طلّقني، وبدأت أحصد ألم لفظة مطلقة في مجتمع يعتبرها سبَّة، ولكني قاومت وتحملت نتيجة قراري، بيدَ أن ما كان يحزنني تفكير أبي في مصيري، وماذا سأفعل لو مات.

ثم تُوُفِّي أبي، وهو يعتصره الألم لما صرت إليه، فمن يتقدَّم لي إما أنْ يعرض أن يتزوجني سرًّا أو عرفيًّا؛ حتى لا تعلم زوجته، أو طامع في زواجي دون أي تكاليف، يريد الزواج في شقة أبي...إلخ.

أصبحت وحيدة في هذه الدنيا، عندما أمرض أرى مأساتي، وأخاف أن أموت دون أن يدري أحد بي.

كيداهم: أليس لك إخوة؟

حنان: لي أختان متزوجتان، وكل واحدة مشغولة بحياتها وأولادها.

كيداهم: ألم تنجبي؟

حنان: سقطتُ مرتين، وكنت أتمنى أن أحمل ولم يسعفني الوقت.

كيداهم: ولكن هل هذا يدعوكِ لإعلان الحرب على الرجال، وعلى تعدد الزوجات بهذه الصورة؟

حنان: أكلمك بصراحة: أنا تعرفت على جمعيات حقوق المرأة، وأشغل نفسي بمؤتمراتها، ولا بد أن أتكلم بهذه الطريقة حتى أستمرَّ معهن.

كيداهم: لقد أشفقت عليك، ما رأيك لو بحثت لك عن رجل مناسب يسترك؟

حنان: هذه خدمة لن أنساها لك.

كيداهم: ابن أختي شيخ ومتدين ويعرف ربنا، وكل الناس تشهد له بالأخلاق والاستقامة، وهو متزوج من اثنتين، ويريد إكمال الأربع.

حنان: هذا مستحيل! كيف أفعل ذلك؟! وبأي وجه أقابل زميلاتي في جمعيات حقوق المرأة؟!

كيداهم: انظري إلى مصلحتك وظروفك، ودعك من هذا الكلام الذي لا يقدّم ولا يؤخر – تخرج صورته من حافظتها – انظري إلى صورته، إنه كالقمر.

تنظر حنان إلى صورته: نعم، شكله جميل، ولكنه ملتحٍ.

كيداهم: نعم، إنه شيخ، وزوجاته يلبسن النقاب.

حنان: نقاب! يا خرابي! أنا ألبس نقاب – تضحك – هو أنا وزير يا معلمة كيداهم لتكيديني؟!

كيداهم: أنا أتكلم بجد، واجلسي معه وقرِّري بعد مقابلته، وعلى فكرة كل البنات معارفنا يتمنين زواجه، لدرجة أن بعضهن لبسن النقاب أملاً أن يتقدم لهن.

حنان: وهل أزواجه يوافقن؟

كيداهم: تخيّلي، زوجته الأولى هي التي اختارت له الثانية، ويعتبرون زواجه ذلك سنة عن النبي ﷺ.

حنان: هؤلاء مجانين.

كيداهم: بصراحة – تضحك – جنونهم أخف من جنونك حين هدمت بيتك لمجرد زواج زوجك عليك، أنا زوجي المعلم فتح الله – الله يرحمه – عندما تزوج عليّ، لم أظهر له شيئًا، وكأن شيئًا لم يكن، وأريته النجوم في عز الظهر، واهتممت بمظهري وأنوثتي، واشتريت ملابس وقمصان نوم وعطور، ولولا الملامة لكان أقام عندي ولم يخرج لعمله، لا لبيته الثاني.

حنان: أنت يا معلمة كيداهم تفهمين في هذه الأمور؟!

كيداهم: هل تحسبينني مثل هوانم حقوق المرأة؟ من يراهن وهن يتحدثن عن الرجل والمرأة يحس – تضحك – أنهن ذكور متنكرون في زيّ النساء، أنا أمام الناس صورة وكنت مع زوجي صورة أخرى، المهم هل أحدّد موعدًا ليراك ابن أختي؟

– حددي.

* * *

كانت حفلة البراءة تليق بالقضية في أكبر كباريه بشارع الهرم، صال الأستاذ رزق وجال ومتّع نفسه، وأظهر إعجابه بالمستشارة سوسو المنفتحة، لدرجة أنه قال عنها: إنها ستُحدث ثورة في القضاء والعدالة، ويكفي أنها أخذت من فرنسا جائزة «أَشْيك قاضية»، ومن ألمانيا جائزة «أجرأ قاضية»، ومن أمريكا جائزة «ملكة جمال القاضيات»، وتوقع لها مستقبلاً باهرًا في عالم العدالة.

قالت إحداهن: ستجعل العدالة على «واحدة ونص».

يضج المكان بالضحك.

الأستاذ رزق: على «واحدة ونص»، على «ديسكو»، المهم العدالة ونسترزق.

تقول إحداهن: أحسن شيء في الأستاذ رزق أنه يصل إلى هدفه من أي طريق.

رزق: الغاية تبرر الوسيلة.. هكذا قال العظيم ميكافيللي.

أستأذنكم لأن عندي قضية كبيرة جدًّا، وأعدُّ لها.

يجتمع الأستاذ رزق مع مجلسه المصغر من موظّفيه الذين يحتاج إليهم في القضية.

رزق: رغم أني لا أحب قضايا المخدرات؛ لكن هذا واجبنا وعملنا، المشكلة أن المعلم حنفي لجأ إلينا متأخرًا، والمحامي السابق لم يكن على مستوى المسؤولية، فلو أتانا قبل تحويلها للقضاء، لكنا غيّرنا في محضر التحقيقات، وأبطلنا الأدلة.

ولكن رب ضارة نافعة، سنأخذ أتعابنا أضعافًا مضاعفة، المهم القضية الآن أمام المستشارة ناهد مشعل.

يسأل أحدهم: هل يمكن عرض مبلغ مالي عليها؟

رزق: تقصد رشوة.. أصير أغبى إنسان يوم أن أعرض رشوة على امرأة؛ إنك لا تستطيع معرفة رد فعلها، ويمكن أن تلقي بنا في ستين داهية.

هناك معلومة مهمة جدًّا عن ناهد مشعل.. إنها كانت متزوجة

عرفيًّا من زميل لها في الكلية، اسمه عصام شوقي، وحدث حمل، وعندما عرف أهلها ضربوه بقسوة، وأحدثوا له عاهة مستديمة في عينه اليسرى، فهو لا يرى بها، وقطعوا ورقة الزواج العرفي، وهددوه أن لا يذكر هذا الموضوع لأحد، وتمت خطبتها لزوجها الحالي، وعملت عملية ترقيع لغشاء البكارة بعد إجهاضها.

أنا شاكر جدًّا للزملاء الذين زودونا بهذه المعلومات القيمة التي لا تقدر بثمن.. المطلوب الآن ضم عصام شوقي لفريق الدفاع في هذه القضية، ثم تكليفه بالدفاع فيها.

هو الآن مقيم بالإسكندرية، وحالته المادية صعبة، وعمله بالمحاماة متعسر، فيضطر للعمل في مجالات أخرى، وهو لم يتزوج حتى الآن بسبب العاهة والحالة المادية.

يقول أحدهم: ممكن نعرض عليه مبلغًا كبيرًا، ونزوّجه، مقابل البراءة.

رزق: لا يمكن هذا، ولا يصح عرض الأمر بهذه الطريقة.. كأنها رشوة.

سأرسل له من يدعوه للعمل معنا مقابل أجر مجز، ثم بعد ذلك تكون هذه القضية من ضمن أعماله.

* * *

- هبة مستلقية على السرير، والأرق شديد، ومناظر الأشلاء والدماء لا تغادر مخيلتها، ويكاد رأسها ينفجر.

- الهاتف يرن.. تنظر في الساعة.. الساعة الواحدة صباحًا.

- ترد على الهاتف.. جريمة قتل.. تلبس ملابسها وتأتي السيارة كالعادة.. تركب السيارة.. الجثة في منطقة زراعية.

- بعد المعاينة تسأل الضابط: من القاتل؟

- لم نصل إليه بعد، وسننتظر تقرير المعمل الجنائي.

* * *

سافرت عصمت على رأس وفد نسوي لأحد مؤتمرات المرأة في جنيف، ومن ضمن الوفد أمها ليلى البدري.. دائمًا ما تؤيّد عصمت كل ما تقرّره هذه المؤتمرات، دون النظر لخصوصية مجتمعها ودينه وأعرافه وتقاليده.

حضر وفد من منظمة إسلامية كمراقب؛ ليدافع عن نظرة الإسلام للمرأة، وتحدّث عن خصوصية المرأة المسلمة، وأنه لا ينبغي فرض قرارات الأمم المتحدة، كنموذج حضاري أوحد على

العالم لتلتزم به الدول كلها، وذلك بإضفاء صفة العالمية على ما يقدّمه بهذا الشأن، وإجبار العالم على تنميط ثقافاته وَفْقًا لذلك النموذج، فارضًا معاييره على أنها مبادئ وقواعد مستقرة ومسلَّم بها على نطاق عالمي؛ بل يجب أن تُنفَّذ بالطريقة التي تناسب كل مجتمع، وظروفه وثقافته ومعتقداته، وإلا فهذا إلغاء لمبدأ التعدد الثقافي وقبول الآخر.

أشارت رئيسة المؤتمر لعصمت بالرد؛ حتى يكون الرد من نفس المجتمعات.

عصمت: إنه لو لم تلتزم الدول بقرارات الأمم المتحدة، فلن تأخذ المرأة حقها، وستظل المجتمعات ذكورية تضطهد المرأة.

الوفد الإسلامي: لا بد من مراعاة أمر مهم، عندما نتحدّث عن المرأة فإننا نتحدّث عن الإنسان، وطريقتكم في تناول أوضاع المرأة طريقة تجزيئية، تجزّئ القضية الواحدة، في حين أنها متكاملة، فليس هناك فصل بين أفراد الأسرة، وتلك هي الصورة السليمة التي تكوّن أطفالاً سليمي السلوك والتصرّف، فإذا كان هناك صراع داخل الأسرة، وبين الأجيال، فإن الفوضى تعمّ المجتمع، والمرأة التي هي رحمة لأسرتها تغرق في لجة عميقة من الأنانية.

عصمت: لا ينبغي الربط بين أخذ المرأة حقوقها وبين الأنانية؛ فهي إما مضطهدة أو أنانية! وما علاقة تحرير المرأة من سطوة الرجل بالأنانية؟!

الوفد الإسلامي: أي تحرير ذلك الذي تتحدّثن عنه؟! هل الحرية هي الانفلات، وإزالة قيود الإنسانية للعيش في الحرية البهيمية؟! إن المرأة هي صانعة الحياة، منذ أن ينشأ الجنين في بطنها، وهي التي تصنع الحياة في بيئتها، ماذا يفعل الزوج عندما تتغيّب عنه زوجته؟ أليست هي التي تنظّم حياة الأسرة وترتّبها؟! أليس حملها أثقل من حمل الرجل؟! أليس خادم القوم سيّدهم؟!

ألم ترَي أن الدول التي عدّلت بالفعل قوانينها لتتطابق مع الاتفاقيات الدولية، وبالتحديد اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو) - حدثت لديها تغيرات مجتمعية مفزعة، ألم يصرّح نائب رئيس محكمة الأسرة عندكم يا سيدة عصمت بقوله: « إن نسب الطلاق الأخيرة دليل على كثرة القوانين التي تُعنى بالمرأة، وتؤدي في النهاية إلى ما نسميه التفكك الأسري»، والمغرب الذي غيّر مدونة الأحوال الشخصية، ألم ترصد الإحصائيات ارتفاعًا واضحًا في نسبة العنوسة، مصحوبًا بارتفاع

كبير في نسبة الفتيات اللواتي يزوجن أنفسهن بأنفسهن، حيث تم رفع الولاية على الفتاة البكر الرشيد في الزواج، وتبع ذلك ارتفاع واضح في نسب اللجوء لدور إيواء الأمهات العزباوات، الدور التي تم تأسيسها تحت ضغوط شديدة من قبل هيئة الأمم المتحدة بسبب كثرة (الأمهات اللاتي حملن سفاحًا).

وتستمر الحوارات ويعلو اللغط.. بين الأطراف المتناقضة وكلٌّ مصرٌّ على رأيه.

* * *

المعلمة كيداهم تحاول إقناع سعيد ابن أختها بضرورة زواجه من حنان.

كيداهم: إنها غلبانة وتريد الستر، ووحيدة في الدنيا، لا يسأل عنها أحد، استرها حتى يسترك ربنا.

سعيد: يا خالتي، كيف أتحمّلها وهي عضو مجلس الشعب، ونشيطة في جمعيات حقوق المرأة؟ تريدينني أن أتزوج امرأة تجعل كل همها الجدال والمساواة والكلام الفارغ! ثم زوجاتي لا يعملن، فماذا ستفعل هي لو طلبت منها ترك العمل؟

كيداهم: ستجدها طائعة وصالحة وتسمع كلامك، وعجيب أمركم؛ كل كلامكم عن هداية الناس، وهذه في يدك أن تهديها وتأبى!

سعيد: هذا زواج يا خالتي، ولو لم ينصلح حالها ستخرب بيتي.

كيداهم: هذه عندي، لو لم ينصلح حالها، فدعها لي.

سعيد: والالتزام والنقاب؟

كيداهم: ناقشها ولو أقنعتها تلبسه.

سعيد: وإن لم تقتنع؟

كيداهم: إذن؛ عليك أن تحلق لحيتك وتدعك من الكلام الذي لا تملّ منه ليل نهار.

سعيد – يضحك -: يا خالتي، إذا لم يقتنع الناس فالعيب فيّ؟!

كيداهم: طبعًا، العيب فيك، والذي خلق الخلق، لو لم تتزوجها، لأجعلنَّ زوجتيك تتفقان عليك، وأريك النجوم في عز الظهر.

سعيد – يبتسم -: أنا لا أقدر عليك، حدّدي موعدًا للرؤية الشرعية.

* * *

عصام جالس في المقهى.. ينتظر الأستاذ عزت من كبار المحامين في الإسكندرية.

يراه قادمًا من بعيد.. يستقبله بحفاوة.

– تفضل يا أستاذ عزت.. هذا شرف كبير لي أن أجلس مع سعادتك.

– هذا شرف لي يا أستاذ عصام.. أنت قانونيّ كبير، ولكن الظروف لم تساعدك.

عصام: كل إنسان يأخذ نصيبه.

عزت: ها هي الفرصة أتتك، وأتيت لأبشّرك.. كنت في زيارة للقاهرة، وكنا جالسين مع مجموعة من المحامين وأتى ذكرك، فوصفت لهم عبقريتك وفهمك للقانون، وشرحت لهم ظروفك، فطلب الأستاذ رزق أن تلتحق بفريق العمل في مكتبه، وبمرتب مجزٍ.

عصام: ومتى أقابله؟

عزت: الآن.. أنا حجزت لك في قطار الساعة السابعة المكيَّف، درجة أولى.

عصام: ولكن الوقت ضيق جدًّا.

عزت: أمامك ثلاث ساعات.. تحرّك يا رجل.

هذا كارت الأستاذ رزق.. اتصل به عندما تصل.

يتصل عصام بالأستاذ رزق قبل نزوله من القطار، فيجد حفاوة وتقديرًا لم يرهما من قبل، ويدعوه لمقابلته في المكتب؛ فهو في انتظاره على أحرَّ من الجمر.

يقابله رزق بعناق شديد، كأنهما صديقان افترقا وتقابلا بعد سنين.

رزق: أنا سمعت عنك كثيرًا وأشتاق لمقابلتك.

عصام: أخجلتم تواضعنا يا أستاذنا الفاضل.

رزق: قبل أي حديث، لابد أن تتعشى أولاً.

عصام: شكرًا يا أستاذ، أنا أكلت ساندوتشات في القطار.

رزق: أي ساندوتشات؟! لابد أن نأكل عيشًا وملحًا قبل العمل، وهذه عادتي مع من يعمل معي، إننا نتعامل كأسرة واحدة؛ بل أكثر من الإخوة.

عصام وقد أحس أن الحظ بدأ يداعبه: هذا شرف لي يا أستاذ.

رزق: تفضل.

يدخل عصام الغرفة المعدّ فيها الطعام.. إنه طعام لم يره من قبل، وبكمية لا يستطيع أن يلتهمها خمسة رجال: عائم وطائر

ولحوم.. مشويات، وجمبري، واستكوزا...إلخ.

يأكل عصام بشهية مفتوحة مع رزق، حتى يشبع كما لم يشبع من قبل، حتى كاد بطنه أن ينفجر، ثم يذهب مع رزق إلى مكتبه.

رزق: أنا سمعت عنك كثيرًا من زملائي في الإسكندرية، والكل يشيد بكفاءتك، وأنت مكسب كبير لنا.

عصام: يا أفندم أنا لا أستحق ذلك.

رزق: كم تريد أن تأخذ راتبًا؟

عصام: يا أفندم، يكفي احتفاؤك بي، وأنا لا يهمني المال.. المهم أن ألقى تقديرًا.

رزق: أعرف ذلك، وأعرف أخلاقك وترفُّعك عن المادة، وهذا ما دعاني – بالإضافة إلى كفاءتك – لاختيارك للعمل معي.

سأعطيك راتبًا شهريًّا ثلاثة آلاف جنيه، بالإضافة لمكافأة كبيرة في كل قضية نكسبها.

عصام لا يصدّق أذنه؛ فهو لم يزد من قبلُ عن أربعمائة جنيه.

رزق: موافق؟

عصام: على بركة الله.

* * *

كثير من المشاركات من الدول الشرقية لا يعجبها طريقة عصمت وموافقتها على كل شيء، وأنها لا تدرك التداعيات الخطيرة ونتائج ما تفعله.

تذهب إليها الدكتورة غادة من الوفد الإسلامي المراقب في غرفتها لتناقشها.

عصمت: بصراحة أنا أعجب لحضوركن هذه المؤتمرات التي تدْعونها مشبوهة!

الدكتورة غادة: أقول لك لماذا أحضر هذه المؤتمرات؟

إن كلّ المؤتمرات التي تعقد حول المرأة، فيها تهجّم على المسلمين، وكأنّ مشكلة المرأة في العالم هي مشكلة المرأة المسلمة، فقد بحثت في الوفود العربية المشاركة، وفوجئت أنّه لا توجد متخصّصة واحدة في الفكر الإسلامي، ولا عالم من علماء الإسلام، بالرغم من أنّ الهجمة على الإسلام في المؤتمر واضحة وشرسة.

لقد دخلت في حوارات جانبية - حيث صفتي كمراقبة تمنعني من التدخّل - مع الكثيرات منهن في قضايا الميراث وشهادة المرأة ومعنى الولاية والقوامة، والحمد لله تغيّرت مواقف كثيرات من الحاضرات وقلن: لقد كنا نجهل هذه المعلومات.

عصمت وكأنها لا تصدّق: اعترفن لك أنهن يجهلن!

الدكتورة غادة: أنا دائمًا أقارن بين مجتمعاتنا ومجتمعاتهن، كنت أقول لهن عند مناقشة موضوع الميراث مثلا: هل النموذج الذي تُرِدْنه أن يورث الرجل كلبه أو قطّته تَرِكته، ويمنع أبناءه وزوجته؟ فالمقارنة تظهر صفاء ونقاء النموذج الإسلامي.

عصمت: ولكن ألا ترين أن مجتمعاتنا متخلفة، ولا تعطي المرأة حقها؟

الدكتورة غادة: ربما هناك حقوق للمرأة منقوصة، ولكن ليست الحقوق التي تنادي به هذه المؤتمرات: حرية إشباع الغرائز الجنسية، بغض النظر عن كونها شرعية أو غير شرعية، طبيعية (بين ذكر وأنثى) أو شاذة، وعلى الحكومات أن تبارك هذه العلاقات وتحميها وتضمن لها السرية، بل وتوفر وسائل منع الحمل لكل الأفراد من كل الأعمار، وإذا ما حدث حمل غير مرغوب فيه، فلا بد أن يكون الإجهاض قانونيًّا ومشروعًا ومتاحًا للجميع بدون أي مساءلة قانونية. تسمّين هذا حرية! وهل ترغبين أنت في ممارسة هذه الحرية؟!

عصمت تنظر إليها ولا تجيب.

تبتسم غادة وتكمل: يريدون إخراج كل من المرأة والطفل من السياق الأسري، والتركيز على الحقوق دون التطرق إلى ذكر الواجبات، فكلمة «حقوق المرأة» و «حقوق الطفل» هي الأساس الذي تنبني عليه مؤتمراتهم، ولا ذكر فيها لأي واجبات، سواء على المرأة أو على الطفل.

تتذكر عصمت كلمات عماد: «آه يا عصمت! صرت أخاف أن يصيبني مكروه أو يفقرنا الله، فلا أظنك من تضحّين، فكل ما علّمته لك أمك الحقوق، أما الواجبات والتضحية، فلا تعرفان شيئًا عنها».

تدخل ليلى البدري أثناء المناقشة بين عصمت والدكتورة غادة، تنظر لها ليلى بتضجر، تستأذن غادة.

ليلى: فيمَ تكلّمك هذه المتطرفة؟

عصمت: حدثتني عن سبب حضورهن هذه المؤتمرات.

ليلى: أصبح هؤلاء المتطرفات الإرهابيات يوجدن في كل مكان، لا أراك تتحدثين مع إحداهن ثانية.

عصمت: هل تخافين أن أقتنع بآرائهن؟

ليلى: هؤلاء كالشياطين يوسوسن، وحديثهن معسول، ولكن

ليس علينا، وأنا أريدك أن تتفرغي بذهنك وتفكيرك لتطبيق قرارات هذا المؤتمر، فقد اقتربنا من النهاية.

عصمت: حدّثني بعض القيادات النسوية عن قلقهن من انتشار النقاب والحجاب عندنا، وأبدين خوفهن من أن ننعزل كنخبة، ويستحوذ المتطرفون على فكر الشعب.

ليلى: تحدّثن معي أيضًا في هذا الموضوع، ووعدتهن بمجرد عودتنا أن نعلن الحرب على هؤلاء المتطرفين بكل أجهزة الدولة.

* * *

زوجتا سعيد وأخواته البنات يجلسن مع حنان كعادة سعيد في زيجاته، يكوّن رأيًا من انطباعه، مع أخذ آراء النساء اللائي يرسلهن في: شكلها، أخلاقها، انطباعهن عنها....إلخ، ثم يحددن معها موعدًا للرؤية الشرعية.

خلال مقابلة حنان مع نساء سعيد تظهر لها أمور عجيبة؛ مثل تآلف زوجتيه وإعجابهما بسعيد وحبهما له، وأنه أستاذ في التعامل مع النساء، ويعدل بينهما، فتعجب من ذلك وتحاول أن تجلس مع كل واحدة منهما على حدة لتتبين كيف يفعل ذلك؟

فيزداد عجبها أنهما غير مهتمتين لزواجه من ثالثة أو رابعة ليصبح ملكها رُبْع رجل فقط.

وكان ردهما متوافقًا: أنه رجل؛ بل أكثر من رجل، وما المطلوب منه إلا أن يراعي شؤون زوجاته وأولاده ولا يقصّر في شيء تجاههما، ولو تزوجت المرأة رجلاً هو لها وحدها وقصّر معها ولم يعطها حقوقها، فهل هذا يسعدها؟!

ما خرجت به من حوار الاثنتين أنه صارم في قسمته بينهما، عندما يكون عند إحداهما، يقول: لا تسأليني عن الأخرى.. أنت غاليتي وحبيبتي، والكلمات التي تأسر النساء، ويتعامل معها وكأنها زوجته الوحيدة، وعندما يذهب للأخرى في اليوم التالي، يشعرها وكأنه كان في العمل، لا عند زوجة ثانية، فينسيها أن لها ضَرَّة، فلا يشعر كل واحدة منهما بالأخرى، ويسبح بها في فضاء الحب والرومانسية، وإذا سألته إحداهما: من أحب إلى قلبك؟ لا يسمح بالمقارنة أبدًا.. وكل واحدة منهما تسعى لرضاه، فتبتكر في ملابسها، وإغرائها، وأنواع الأكل؛ عسى أن تفعل شيئًا لم تفعله الأخرى لحبيبها.

خرجت حنان من هذا اللقاء مع نساء سعيد بانطباعات

جديدة، أول مرة تدخل في حوار مع ضَرَّتين مع أنها كانت قضيتها الأولى، وكانت دائمة السب واللعن لتعدد الزوجات.

يأتي سعيد في الموعد مع خالته كيداهم.. لابسًا ثوبًا أبيض.. يفوح منه عطر جذّاب يملأ أرجاء المكان، تختلس حنان نظرة منه وهي تفتح لهما الباب.. يقع إعجابها به في قلبها.. هو أجمل من الصورة – تحدّث نفسها - وكأنها ترى ملتحيًا لأول مرة، فكانت نظرتها للّحية دائمًا أنها شيء سيئ، وأنها تضيع جمال الرجل، ولكن سعيدًا لحيته تزيده جمالاً رائعًا.

يدخل سعيد وخالتُه.. تجلس حنان لابسة جلبابًا طويلاً وإيشاربًا يغطّي رأسها وعنقها، وعينها في الأرض حياءً، وكأنها عذراء تخطب لأول مرة.

تذهب حنان لإحضار واجب الضيافة.

يسأل سعيد خالته: لماذا لم يأت أحد من أهلها؟

كيداهم: أتحسب أنه لو كان هناك أحد من أهلها يهتم بها ويراعيها كنت عرضت عليك أن تتزوج هذا القمر؟!

سعيد: يعني مقطوعة من شجرة؟

كيداهم: هل ستتزوجها أو ستتزوج الشجرة؟!

سعيد: ألا أسأل عن نسايبي؟

كيداهم: نسايبك كثيرون، ربنا يزيد ويبارك، المهم أنجز حتى نحدّد موعد كتب الكتاب.

سعيد: اهدئي يا خالتي؛ هذا زواج.

كيداهم: تعالَي يا حنان اجلسي، كفى ما قدّمتِه، كريمة من يومك.

تجلس حنان والخجل بادٍ على محيَّاها.

سعيد: بداية إننا مأمورون بغض البصر إلا في هذا الموقف، فلا بد أن تَرَيْني جيدًا وأراك، ثم نستخير الله تعالى، حتى إذا ما تم الزواج لا تقولين: لم أره جيدًا ولم أستحسن شكله – يبتسم – أو أنا أقول: لم أرها إلا ليلة الدخلة.

فعلت كلماته فعل السحر في نفسها، وتجاوزت مرحلة الخجل والإحراج، وبدأت تنظر إليه وتحاوره، وفوجئت أنه مثقف جدًّا، بل ظهر من كلامه معها أنه بحر لا ساحل له، قارئ في الدين والسياسة والأدب والشعر، ويجيد استخدام الكمبيوتر والانترنت....الخ، إلى أن أتيا إلى ذكر النقاب.

حنان: ولماذا تشترط في زوجتك لبس النقاب؟

سعيد: إن زوجتي في نظري أجمل امرأة في الدنيا، لا أستحلُّ أن أنظر لغيرها في حرام؛ فأنا ملكها، وهي ملكي، فإذا كنت لا أنظر لغيرها، فكيف أسمح لغيري أن ينظر إليها؟!

حنان: ولكن إذا صرن أربعًا؟

سعيد: كل واحدة منهن تملك قلبي، ولا أستحل أن أظلم إحداهن أو أشعرها إلا بما تحب، فهن أمانة في عنقي.

حنان: واضح أنك قرأت في الأدب كثيرًا، وخاصة الغزل.

سعيد: أنا أحب الشعر والأدب، والنبي ﷺ يقول: ((إن من البيان لسحرًا))، وليس هناك من يستحق السحر الحلال أفضل من زوجة المرء، فكم من مشكلة كبيرة أنهتها كلمة أو رسالة حب!

ملك سعيد فكر حنان وقلبها بأسلوبه الجذاب، حتى إنها اقتنعت بكل كلمة قالها، وشعرت أنها تعيش في دنيا أخرى لم تتذوقها من قبل.

لم يقطع الحوار إلا صوت كيداهم: كفى اليوم ذلك، عندنا جلسة في المجلس غدًا.

وكأن كيداهم ضربتها على رأسها وأخرجتها من حلم رائع.

سعيد: نستأذن الآن، ونستخير الله تعالى، وما يقدّره الله فهو

الخير.

تتأخر كيداهم حتى يخرج سعيد، وتختلي بحنان: غدًا تعطينني الرد النهائي، وإن كان وجهك ينبئ عن قلبك.. سلام.

ثم تلحق بسعيد وتسأله: ما رأيك في العروس؟

سعيد: واضح أنها طيبة وظروفها صعبة، لكن أريد رؤيتها مرة أخرى حتى لا أتعجّل أو تكون استجابتها بسبب ظروفها، لا اقتناعًا.

كيداهم: نعم نعم! أتحسبني ليس ورائي غيرك؟ وما هذا الكلام الفارغ؟! من يسمعك يحسب أنك أول مرة تحدّث امرأة، ولست متزوجًا من اثنتين وخبيرًا في النساء.. هما كلمتان: حنان معدنها طيب وكل ما كانت تفعله كان بسبب ظروفها، ولو قَبلتْك سأحدّد معها موعدًا لكتب الكتاب.

سعيد: وهل يمكن أن ترفض؟

كيداهم: طبعًا.. حنان يتمناها أي رجل محترم، ودعك من الغرور الذي أنت فيه.. مشايخ آخر زمن!

* * *

يمر أربعة أيام وليس هناك جديد.

- هبة: يا أستاذ عليوة، ألم تصل التحقيقات إلى شيء؟

- هناك خيط يتبعه المحققون الآن.. وربما اتضحت الأمور قريبًا جدًّا.

- ما هو؟

- تحليل المعمل الجنائي يقول أنه أخذ منوِّمًا قبل القتل بحوالي نصف ساعة.

- وما حالة القتيل الأسرية؟

- يعيش هو وزوجته وأولاده الأربعة في منزل العائلة مع إخوته وأبيه وأمه، وهو رجل سمعته حسنة، وطيب، ومحبوب بين الناس.

- يدخل العسكري: الرائد حسين يريد الدخول.

- يدخل الرائد حسين: قبضنا على القاتل، وهذا محضر التحقيقات.

- وأين هو؟

- في الخارج.

- ومن القاتل؟

- أخوه.

- أخوه؟! كيف يقتل الأخ أخاه؟! يا له من زمن!

- أدخله بسرعة.

- ألا تقرئين محضر التحقيقات أولاً؟

- سأنظر فيه سريعًا، وسأحصل منه على ما أريد خلال التحقيق (تتكلم بثقة).

- يدخل عمرو مقيدًا.. وجهه في الأرض.. لا يدلّ وجهه على أن فيه شيئًا من القسوة.. بل ربما في عينيه براءة الأطفال.. تحدّث نفسها: أيعقل أن يلفّقوا له القضية كما نسمع؟ أم هي قسوة الرجال؟ ويا لها من قسوة!

- فكَّ قيوده.. اجلس.

- ممكن تنتظر في الخارج. (تقول للرائد حسين).

- أعط بياناتك للأستاذ عليوة.

- يعطيه البيانات.

- أنت أخو القتيل؟

- نعم.

- هل قتلتَه؟

- نعم.

- هل كنت تكرهه؟

- لا.

- عجبًا! ما السبب؟

- الحكاية تبدأ منذ زواج أخي القتيل، كنت حينها في الخامسةَ عشرةَ من عمري، في بداية مرحلة البلوغ، وكنا نعيش في بيت مختلط، وقلبت زوجة أخي حياتي رأسًا على عقب، كانت تلبس ملابس فاضحة، ولا تراعي أننا شباب، فكانت تثيرني جدًّا لدرجة أنني كنت لا أنام الليل، وأهملت دراستي، وكنت أخاف أن أكون سببًا في فضيحة لأهلي، فأخذت أحاول معرفة هل تلبس ملابسها هذه عن قصد أو لا؟

فأخذت أضاحكها وأتقرب منها، وهي كذلك، ووصل الأمر لاستخدام اليد، وحينها زالت كل الفوارق، وفوجئت بها يومًا - وليس في البيت غيري أنا وهي - تراودني، فواقعتها، ومن حينها تعتبرني كأنني زوجها، وكلما حاولت التوبة تهددني.

وفي الفترة الأخيرة فكرت في التوبة والزواج، فهددتني بقتل أخي، وأنها ستخبرهم أن كل أولادها مني وليس من أخي، وأنها

تحبني وتكرهه، وعلى استعداد أن تفعل أي شيء لاستمرار العلاقة بيننا، وأعلنتها صريحة، قالت لي: إن المرأة إذا عشقت، تكون على استعداد بالتضحية بكل شيء – زوجها وأولادها وإخوتها وعائلتها – كل شيء.. فهمت.

- فاضطررت للسير في العلاقة كما كنا.. ومنذ عشرة أيام أتت لي وقالت: إن أخي شك أن هناك شيئًا بيننا، وأنه يراقبنا، وأن أمرنا سيفتضح وستدمر العائلة.

فاضطربت ولم أعرف كيف أتصرف، فعرضتْ علي تلك الشيطانة التي كانت تخطط للتخلص من أخي لتتزوجني.. عرضت علي التخلص منه، فخفت ورفضت، ومع إغوائها وإلحاحها وتخويفي من الفضيحة وافقت.

- كيف قتلتماه؟

- فاتحته في أنني أريد خطبة فتاة، وأريد أن أذهب أنا وهو أولاً دون العائلة للتعرف على أهلها، ففرح ووافق.

- ألم تجعلك فرحته ترجع عما عزمت عليه من قتله؟

- بلى، أثرت فيّ؛ ولكن هذه الشيطانة قالت: إنه أظهر الفرح حتى لا يشعرك بشيء، وقطعت كل طريق للتراجع.

- وضعتُ له منوِّمًا في العصير ونحن خارجان، وركب معي السيارة التي أعمل عليها سائقًا، وبعد ركوبه نام، وأخذته إلى المناطق الزراعية وحملته وألقيته على الأرض، وطعنته طعنات قاتلة بالمطواة.. (يرتفع صوته بالنحيب) قتلت أخي.

- يا لك من خائن!

- أريد أن يحكم عليّ بالإعدام.

- الإعدام حكم مخفَّف عليك.. أنت تستحق أن تلقى في نار جهنم الآن.. يحبس أربعة أيام على ذمة التحقيق.

يخرج ومازالت الكلمة تتردد في أذنها: «إن المرأة إذا عشقت تكون على استعداد بالتضحية بكل شيء».

تقول للأستاذ عليوة: يا لقساوة هؤلاء الناس! وإن هؤلاء النساء أمرهن عجيب.. تضحي بكل شيء من أجل شهوة حقيرة.

-الأستاذ عليوة: يا أستاذة هبة، المرأة ما لم تتربَّ على الدين والأخلاق من السهل عليها أن تدمّر أسرتها وعائلتها وتفضحهم، وهذا يصعب أن يفعله الرجل، ولذلك الناس تفضل البنين على البنات؛ فالبنت لو لم تكن صالحة عبارة عن قنبلة تدمّر عائلتها في أي وقت، أما الولد فلو دمر، سيدمر نفسه فقط غالبًا.

- تنظر إليه، وتفهم ماذا يقصد، ولا تعرف بماذا تجيب؟

- يرن الهاتف.. آلو.. ما طبيعة الجريمة؟ حاضر يا أفندم.

عندنا معاينة يا أستاذ عليوة.. جريمة قتل.. امرأة وعشيقها قتلا ابنها. (تتكلم بأسى).

* * *

اجتماع مهم لمنظمات حقوق المرأة بقيادة السيدة عصمت، والوزراء، وشيخ الأزهر والمفتي، وجمع من المثقفين العلمانيين والشيوعيين.

عصمت: لقد زاد انتشار الأفكار المتطرفة في المجتمع، والظواهر مثل اللحية والنقاب، وأصبح ينتشر انتشار النار في الهشيم، ولا أدري ما الذي يحدث؟! كنا منذ مدة نتهكم على الحجاب، فإذا به يصير لباس النساء، ثم وصل الأمر إلى النقاب، ومع أن مشايخنا يحاربونه ليل نهار، إلا أنه يزداد بصورة غريبة، واجتماعنا اليوم حتى نعلم أين نضع أقدامنا؟ ولا بد من إيقاف انتشاره، وإلا لأصبح لباس النساء، وضاع كل الجهد الذي بذلناه أمام منظمات المرأة والغرب، وهم يتهموننا الآن أننا منفصلون عن الشعب،

فنحن – النخبةَ – في وادٍ، والشعب في وادٍ.

الأستاذ عادل حجازي – كاتب صحفي ليبرالي شهير -: أيها السيدات والسادة، إن انتشاره بسبب الثقافة البدوية الآتية من دول الخليج، ولا بد من مواجهتها والقضاء عليها بشتى السبل، وأرى أن الداخلية خفّفت قبضتها عن أولئك المتطرفين، وذلك سبب انتشار أفكارهم الظلامية.

وزير الداخلية: أولاً: عيب أن تتشدق وتقول: الثقافة البدوية، وتعترف أنك لا تستطيع مواجهتها فكريًّا بل بعصا الأمن؛ فأنت تدّعي أنك ليبرالي ليل نهار، ولا تملّ من المناداة بحرية الفكر وبقية الكلام المحفوظ، ومن يسمعكم ويقرأ لكم يشعر أنكم تؤثّرون في العالم أجمع، لا الدول العربية فقط، وها هي الثقافة البدوية تغزوك في عقر دارك، ولا تستطيع مواجهتها.

عادل: أرجوك سيادة الوزير، أنا مفكر ليبرالي لي وزني عالميًّا، ولا أسمح بهذا الكلام الجارح.

الوزير: وأين وزنك العالمي مع المتطرفين الذين لا تملّ سبَّهم ليل نهار، وأخشى أن أرى زوجتك وبناتك منتقبات قريبًا.

عادل: لا، هذا كلام لا يحتمل، بناتي أنا ونسائي يلبسن

النقاب!!

الوزير: لا تستبعد شيئًا في هذا الزمان، كم فتاةً تعرفها أنت كانت تلبس البكّيني، وأصبحت منتقبة؟

عادل: هؤلاء حدثت لهن ردّة فكرية، وأعلم أنك تعرف أن بنات إخوتي انتقبن.

الوزير: ولماذا لم تناقشهن فكريًّا؟

عادل: إن الحوار معهن لا يطاق، لا تستطيع أن تقنعهن.

الوزير: المشكلة أن كل من حضرن حواراتك معهن لبسن النقاب! ماذا تسمي هذا؟!

وعلى فكرة بنتك الكبرى متأثرة بقريباتها المنتقبات، وتضع الحجاب بعد خروجها من البيت، ولا أعلم كيف ستتصرف معها لو لبست نقابًا؟

عادل: لو لم ترتدع إلا بالقتل لقتلتها، أنا بنتي تلبس نقابًا!!

الوزير يبتسم: ونعم الليبرالية.. يا سادة، أنا درست المسألة جيدًا، وسألخصها لكم من جميع جوانبها:

السبب الأول في انتشار النقاب: مشايخنا الكرام؛ فلا يكادون يتركون لقاء أو حوارًا دون الحديث عن النقاب، والسيد وزير

الأوقاف كلما تكلّم، اتهم من يتحدث عن النقاب والذين يجعلونه قضيتهم بالتخلف والجهل، مع أنه أمام الناس جعله قضيته الأولى، فجعلوا من لا يعرف النقاب يحاول معرفته ويسأل عن حُكمه في الشرع.

عصمت: يا وزير الأوقاف، ألم تقل لي أنك ستقضي على النقاب، وستطبع مائة ألف نسخة من كتاب ألّفتَه سيقنع المنتقبات بخلع النقاب؟

وزير الأوقاف: نعم يا أفندم.

عصمت: أنا أظن أن اللاتي قرأن الكتاب كلهن لبسن النقاب.

وزير الداخلية: أنا أوضح لكم ما حدث يا سادة: سعادة وزير الأوقاف كل كتابه هجوم على النقاب، فمن يقرؤه يرجع إلى كتب الفقه والتفسير، فيجده خلاف ما في الكتاب، خاصة أن أسرته لا تلتزم بالحجاب الشرعي، هذا مع انتشار فتاوى المفتي وشيخ الأزهر قبل المنصب مثل دفاعهما عن النقاب والختان، وتغيّرهما بعد المنصب.

الشيخ سلامة – بغضب -: ماذا تقصد يا سيادة الوزير؟!

وزير الداخلية: أنا آسف أيها السادة أني أتحدّث بصراحة،

ولكن هذه فرصة حتى نعلم أين نضع أقدامنا، وأنا ووزارتي على خط المواجهة، فكل واحد منكم يتحدث فقط، ولا يهتم بنتيجة ما يفعل، أما نحن، فكأننا نسير على الحبل، إن لم نحفظ توازننا، فسنسقط جميعًا.

عصمت: نحن نقدّر جهودكم سيادة الوزير، ولا بد من الصراحة وإلا سنغرق جميعًا.

وزير الداخلية: السبب الثاني: السادة الليبراليون واليساريون، الذين لا يملّون الحديث عن الحريات الفردية، ولكن على هواهم، فسقطوا من أعين الناس، وأصبحوا يريدون حرية التعرّي والجنس والشذوذ فقط، أما الحجاب والنقاب والأفكار المتطرفة – التي من المفروض أن تشملها حرية الرأي – فيطالبون أمام الناس بمصادرتها، فكيف يطالبون بحرية الرأي وهم أعداؤه؟! فأصبحوا عبئًا علينا، وأرى أن كلامهم ومواقفهم تصب في صالح المتطرفين.

عادل: إن في كلام الوزير تجنّيًا على المثقفين، ولا أعلم لماذا رجال الأمن يكرهون المثقفين؟!

وزير الداخلية: يا سيد عادل، أنا كلامي كله يدور حول المصلحة، أما السادة المثقفون، فتارة يكونون يساريين أو شيوعيين،

ولا مانع لديهم من ركوب قطار الليبرالية، وأسألك سؤالاً: ما فائدة أن تحاربوا من أجل رجل يسب الله ويتطاول على الذات الإلهية في وسط شعب يحب الدين، وتعطونه جوائز وتكرّمونه؟!

عادل: نحن ندافع عن حرية الرأي مهما كان.

وزير الداخلية: ولماذا لا تدافعون عن حرية رأي المنتقبة في لبس ما تشاء؟! بل تدعون في وسائل الإعلام إلى منعه وحظره! أرأيت كم تساهمون في نشر التطرف بظهوركم في مظهر المدافعين عمن يسب الذات الإلهية وتضيقون ذرعًا بمن يقول بحرية النقاب؟!

الأستاذ عادل قال: إن الداخلية خفّفت قبضتها عن المتطرفين، فهل تتخيلون أن رجال الأمن بلا مشاعر، ماذا سنفعل مع فتى الْتحى وقال: أتّبع سنة الرسول ﷺ وليس له علاقة بتنظيمات؟ أو فتاة انتقبت وقالت: كيف تبيحون التعري وتحاربون الحشمة؟!

نعم، لو كان عددهم قليلاً كنا سنتصرف معهم، فكيف وقد صاروا آلافًا مؤلفة؟! وكلما ضغطنا عليهم مع الوضع الذي شرحته قبلُ، ظهروا بمظهر المدافعين عن الإسلام ونحن كفار قريش الذين نحارب الإسلام، وانتشرت أفكارهم انتشار النار في الهشيم، وصاروا في أعين الناس أحرارًا ينصرون دين الله، وتمنّى كل الناس

أن يلتحقوا بهم، لدرجة أن النقاب قد صار بالنسبة للفتيات رمز التحرر، بعد أن كان المايوه، فماذا حدث يا سادة؟

عصمت: شكرًا سيادة الوزير؛ لقد أجليت الأمر، ولكن ماذا نفعل؟

وزير الداخلية: أرى أن نتجاهل الأمر، فلا يتحدث أحد بعد اليوم عن النقاب وخلافه، فيصير فكرة عادية في المجتمع تتضارب مع الأفكار الأخرى.

عادل: ولكنهم سيزدادون انتشارًا.

وزير الداخلية: ربما ازدادوا، ولكن ليس كما هو حادث الآن، فأتوقع لو ظل الأمر كما هو أن يدخل النقاب إلى بيوتنا.

عادل: سيادة الوزير يريد أن يريح رجاله من المواجهة مع المتطرفين.

وزير الداخلية: هذا اتهام لا يليق، وعمومًا سنكون عصا غليظة في المواجهة، ولكن اعلموا أن الفكر لا يواجه هكذا.

عادل: كلنا في المواجهة، الكتاب الليبراليون يهاجمون التطرف ومظاهره في إبداعاتهم، والمشايخ في ندواتهم، ورؤساء الجامعات يمنعون المنتقبات من الامتحانات ويضيقون عليهن ما استطاعوا

حتى يتركن التعليم، وهكذا.

وزير الداخلية: سأنفّذ ما تتفقون عليه؛ ولكن وجهة نظري أن المواجهة بهذه الطريقة ستزيد النار اشتعالاً، وسيزيد عددهم، وسيكسبون أرضًا جديدة، ودعونا نرَ ما سيحدث.

* * *

تقضي حنان الليل في التفكير، بين فرحة بانقضاء مأساتها وزواجها من رجل جذّاب في حديثه وهيئته وثقافته، وبين قلقها أن يرفض زواجها، فيهوي صرح أحلامها ويتهدّم أملها في ستر رجل تستظل بحبه وحنانه.. وبين تفكيرها في وصولها بعد كل هذا إلى أن تكون زوجة ثالثة، وربما رابعة، ثم تعود وتصبّر نفسها بأن سعيدًا ليس ككل الرجال، وواضح أنه يعرف كيف يتعامل مع النساء.. ثم تعود إلى زميلاتها في جمعيات حقوق المرأة.. كيف سينظرون إليها؟ ولا بد أنهم سيتهمونها بالخيانة ويشوّهون صورتها.. وإن كان ذلك آخر ما يقلقها، فهي تعلم أن كل واحدة منهن تبحث عن حياتها ومصلحتها، وقد آن لحنان أن تستريح وتضحك لها الدنيا.

تذهب حنان إلى المجلس والحيرة بادية في عينيها.. تتلقاها

كيداهم بحفاوة وأحضان وتجلسان في آخر المجلس، وأثار منظرهما النائبات وأسررن الحديث أنه لا بد من أمر بينهما، ولكن ماذا سيجمع بين حنان وكيداهم؟!

كيداهم: ما رأيك في سعيد ابن أختي؟ أليس كما قلت لك؟

حنان: هو محترم، ولكن سأنتظر حتى أعلم رأيه أولاً.

كيداهم: وهل سيجد في الدنيا أفضل منك؟!

حنان: كأنها أصابت قلبها بسهم الحب والفرح: أنا لا أعرف كيف أردّ لك هذه الوقفة معي؟

كيداهم: أريد منك شيئًا واحدًا: أن تحافظي على بيتك وزوجك، ومهما حدث، تضحي بأي شيء إلا بيتك وزوجك وأولادك.

حنان: أولادي! أتمنى أن أسمع كلمة «ماما» ثم أموت بعدها.

كيداهم: أعوذ بالله! تموتين؛ بل ستعيشين حتى ترَيْ أبناءك وأحفادك، لكن الله يكرمك لا تجادلي سعيدًا في موضوع تنظيم الأسرة لأنه يحب الأولاد.

حنان: لقد كبرت سني، فكم سأنجب؟

كيداهم: ستنجبين عشرة إن شاء الله.

حنان: عشرة!

كيداهم: وهل هناك نعمة مثل الأولاد؟! قولي: يا رب.

حنان: يا رب.

كيداهم: كتب الكتاب الجمعة القادمة إن شاء الله، والدخلة الخميس الذي بعده.

حنان: ولكن أنا غير مستعدة.

كيداهم: عيني في عينك.. ثم تطلق زغرودة تهزُّ المجلس.

يتساءل الحضور: ما الأمر؟

كيداهم: ابن أختي خطب حنان والدخلة الخميس بعد القادم.

* * *

ينهمك عصام في العمل، ويثبت كفاءة عند رزق؛ فيوميًّا يدور بين المحاكم ليؤجّل قضية، أو يترافع في أخرى، ويفعل ما يكلَّف به على أتمِّ وجه.

يرسل رزق لعصام أن يأتيه بسرعة جدًّا.

يدخل عصام مكتب رزق.

رزق: تفضل يا عصام.

عصام: خيرًا يا أفندم.

رزق: خيرًا إن شاء الله.. هناك قضية موقف المتهم فيها خطير؛ ولكنه مظلوم؛ فهو رجل دخل في مشكلة مع بعض كبار البلد، فلفَّقوا له تهمة باطلة بقضية مخدِّرات، وعذبوه وضغطوا عليه وهددوه بهتك عرضه وعِرْض نسائه، فاضطر للاعتراف بما يريدون.

هاك مِلَفَّ القضية.. ألقِ عليه نظرة سريعة في مكتبك ثم ائتني.. لو سمحت أرسل لي الأستاذ علي.

حاضر يا أفندم.

يدخل الأستاذ علي وفي يده حقيبة متوسطة الحجم.

- تفضل يا أستاذ علي.. ماذا فعلت؟

- كل شيء تمام يا أفندم.. يفتح الحقيبة.. هذا جزء من المضبوطات وغيّرنا أوصاف المضبوطات كما أمرتَ سعادتك، وهذا المسدس والرصاص وأعطيت للعميل مسدسًا آخر حتى يضعه مكانه.

كان خائفًا جدًّا؛ ولكن المبلغ الذي أخذه يجعله يبيع أباه لا بعض المحرَّزات، وطمأنته أنه يستحيل أن يصيبه ضر، وربنا يستر.

رزق: لا تخف؛ فمهما حدث.. حتى لو تيقّنت المستشارة مما حدث فلن تسجن حبيب القلب، وكفى ما ناله بسببها؛ فعاطفة المرأة أقوى من عقلها.

علي: لم أرَ عقلاً كعقل سعادتك، ومن حسن حظنا أننا تلامذتك.

رزق: شكرًا يا ابني.. أرسل لي عصامًا.

علي: حاضر يا أفندم.

- يدخل عصام وفي يده أوراق القضية.

رزق: اطَّلعتَ على القضية؟

عصام: نعم يا أفندم.. ولكن القضية موقفنا فيها ضعيف، وأنا لم أقرأها جيدًا بعد.

رزق: هناك ثغرة في القضية سنحصل منها على البراءة، وهي غير موجودة في الأوراق.. سأخبرك بها، وابْنِ مرافعتك عليها.

عصام: ما هي؟

رزق: المضبوطات المحرّزة فيها أخطاء.. مثل عدد الكليو جرامات من المخدّرات وأوصاف المسدس والرصاص.

عصام: وكيف عرفت ذلك؟

رزق: لي صديق استطاع أن يطّلع عليها.

عصام وقد ساوره شك أن يكون هناك تلاعب: هل اطّلع عليها فقط أو غيّر فيها؟

رزق وقد تغيّر وجهه: أستغفر الله.. أستغفر الله.. هل رأيت عليّ شيئًا من ذلك قبلُ؟

عصام: لا يا أفندم.. أنا آسف.. حضرتك فهمتني خطأ.

رزق: ما تقوله لا يجوز شرعًا إلا في حالة أن يكون المتهم مظلومًا، فيجوز لك أن تفعل أي شيء لترفع عنه الظلم.

عصام: طبعًا يا أفندم، وهذا لا خلاف فيه، ولكن أريد أن أطمئنَّ حتى لا يحدث شيء مفاجئ فأخسر القضية.

رزق: لا تقلق.. هذه القضية بإذن الله براءة.. أنا مستبشر بك.

عصام: بشَّرك الله بالخير يا أفندم.

رزق: استعدَّ للمرافعة يا بطل؛ فهي بعد أسبوع من الآن.

❊ ❊ ❊

تتزوج حنان وتستقيل من المجلس، وتنتقل إلى حياة وشخصية أخرى، وتصبح قصتها دليلاً على أن العاملات في قضايا المرأة لا

قناعة لديهن بما يقلن، ولكنه للمصالح الشخصية أو شغل وقت الفراغ والظهور الإعلامي. (هذا ما يجهر به نواب المجلس وبعض الإعلاميين).

أثناء الجلسات لاحظت كيداهم أن نيفين تتعمد الجلوس بجوارها وتتبادل معها الحديث في كل الجلسات، حتى أصبحت تحكي لها عن حياتها الشخصية.

كيداهم: كم عدد أولادك؟

نيفين بأسى: لم أنجب.

كيداهم: لا تحزني، الأولاد هَمٌّ ومشكلاتهم لا تنتهي، وهم رزق من عند ربنا، وكل شيء قسمة ونصيب، وهناك من تنجب بعد الأربعين، ولكن السبب منك أم منه؟

نيفين: لا أفهم.

كيداهم: ما الذي لا تفهمينه؟! سبب عدم الإنجاب منك أم من زوجك؟

نيفين: أنا غير متزوجة.

أصاب كيداهم الإحراج.. أنا آسفة؛ لم أكن أعرف، عمومًا ربنا يرحمه ويعوضك.

نيفين: من تقصدين؟

كيداهم: المرحوم زوجك؟

نيفين: من المرحوم؟

كيداهم: آسفة.. فهمت.. أنت مطلَّقة.. واضح أنه كرّهك في جنس الرجال.. لم أسمعك تتكلمين عنهم إلا كأنهم قتلوا لك قتيلاً.

نيفين: لا.. الموضوع ليس كذلك.. سأحكي لك حكايتي.

أنا ليس لي إلا أخ وحيد، وكنت مدلَّلة جدًّا وأثيرة لدى والديَّ، ومنذ أن دخلت الكلية لم ينقطع الخطّاب، وكان والداي يستجيبان لرغباتي ولا يخالفانني في أمر أريده، وكنت أريد أن أتزوج من فتى أحلامي، الذي كنت أريده يجمع «كوكتيل» من شخصيات عبدالحليم حافظ وأنور وجدي ورشدي أباظة وفريد شوقي.

كيداهم: لماذا؟ كنت تريدين عمل فيلم؟!

نيفين: لا.. أنا كنت أقضي جلَّ وقتي في مشاهدة الأفلام، وكان هؤلاء هم النجومَ المفضّلين لديّ، فكنت أريد أن يكون زوجي «كوكتيل» منهم.

كيداهم: وطبعًا لم تجديه.

نيفين: أخذت أرفض كل الخطاب، حتى بلغت الثلاثين، فلم يتقدم لي أحد بعدها.

كيداهم: وكم سنك الآن؟

نيفين: أنا مواليد ثلاثين نوفمبر.

كيداهم: المهم.. وأين والداك؟

نيفين: تُوفّيا.

كيداهم: الله يرحمهما.. وأخوك؟

نيفين: متزوج..ودائم المشاكل معي بسبب زوجته التي تكرهني وتعتبرني عبئًا عليهما، ويريدان أن أنفق عليهما وعلى أولادهما.

كيداهم: يعني كأنك وحيدة.

نيفين: نعم، ادعي لي أن يرزقني الله بزوج محترم.

كيداهم: من يسمعكن تتحدثن عن الرجال يحسب أنكن تردن قتل الرجال الذين يمشون على الأرض جميعًا.. وكل واحدة تتمنى رجلاً يسترها، وتعلم أنها من غير زوج لا شيء، فكيف والرجل هو الأب والابن والزوج والأخ؟!

نيفين: بصراحة أنا أتيت لأتحدث معك بعد موضوع حنان،

وذهبت إليها لتهنئتها بالزواج، ووجدتها في قمة السعادة، وعلمت بعد ذلك أنها حامل.

كيداهم: ما رأيك في زوجها؟

نيفين: هي حكت لي عنه وإعجابها به وكيف يعاملها.

كيداهم: أنا سأرى لك زوجًا، ولكن عليك أن تكوني ذكية مثل حنان.

نيفين: لن أنسى لك ذلك، وكم أتمنى أن أسمع كلمة «ماما»!

كيداهم: إن شاء الله ستسمعين «ماما وبابا وجدتي»، ما عليك إلا أن تدعي ربنا، واتركي الباقي عليّ.

ترسل كيداهم لسعيد ابن أختها، وتعرض عليه زواج نيفين.

سعيد: ما لك يا خالتي؟ تريدينني أن أتزوج المجلس!

كيداهم: ما رأيك في حنان؟ أليست زوجة صالحة وتطيعك؟

سعيد: بلى، ولكن...

كيداهم: ولكن ماذا؟ لا تقلق.. نيفين مثل حنان، وهذه الرابعة ونغلق الباب.

وأخذت كيداهم تقنعه بالزواج من نيفين.

يتم الزواج، وتستقيل نيفين من المجلس وتحدث هزة خطيرة في

بنيان جمعيات حقوق المرأة.

* * *

عصام واقف مع رزق يتناقشان في نقاط الدفاع، ويبدو الاهتمام على عصام، حتى ملابسه أنيقة وفوقها روب المحاماة أعطاه بهاء.

رزق: أنا واثق أن هذه القضية ستكون محطة انطلاقك في عالم المحاماة ونيل الشهرة التي تستحقُّها، وسيكون هناك تغطية إعلامية فور النطق بالبراءة بإذن الله.

عصام: ادع لي يا أفندم.

رزق: وفقك الله.

صوت الحاجب: محكمة.

كلٌّ يأخذ مكانه ويقف، وعصام يأخذ مكانه.

تدخل المستشارة ناهد مشعل ومن معها، وتجلس في مكانها.

– أُسقط في يد عصام بمجرد أن رآها.

– تبدأ الجلسة وعصام غريق في طوفان من المشاعر المتضاربة.. حاول أن يكذّب نفسه أنها ليست هي؛ ولكن هيهات! فالقلب يرى

أقوى من العين.

هجم على فكره طوفان من ذكريات الأيام الخوالي، وكيف كانت تخبره أنها تحبُّه بجنون حتى اضطر للزواج منها عرفيًّا.. تذكّر الآلام التي أصابته بسببها، وفقدان عينه اليسرى، وضياع مستقبله.

حاول أن يسبح في هذا الطوفان.. يغرقه تارة، فلا يسمع ما يدور حوله.. ويسبح تارة، فيسمع بعض ما يدور، حتى أقسم على نفسه أن تنصره في هذا الموقف الصعب، فلابد أن ينجح في هذه القضية.

أنهى الادِّعاء مرافعته، والمستشارة تناقشه، واختلست نظرة إلى محامي المتهم، فأصابها شعور غريب.. أحسَّت أنها تعرفه، ولولا الحياء لأمعنت فيه النظر، أو سألته عن شخصيته.. وكلما اختلست نظرة، زاد يقينها أنه هو.

يا الله! عصام شوقي! معقول! ذلك الفتى الذي ضحَّيت بمستقبلي من أجله.. الذي أحببته بجنون.

ولكن بسببي صار أعورَ، وضاع مستقبله.. كانت تأتيني عنه بعض الأخبار.. كانت كلها سيئة، وكم كان يحزنني أنني السب فيما حدث له!

تنهمر الخواطر على رأسها كسيل جارف.. لم تعد تسمع شيئًا، وتفككت خيوط القضية من رأسها.

وكلما اقترب دور الدفاع، ازدادت توترًا وقلقًا.. كيف ستنظر بعينيها في عينه السليمة؟!

وكيف ستنظر إلى عينه العوراء، التي لو نطقت لقالت لها: أنت من فعلتِ بي هذا.. بسببك أنت وحدك!!

رزق جالس يتابع النظرات والخطرات، ويقرأ ويحلّل وينتظر.

- يأتي دور الدفاع.. ينهض عصام ليدافع.. ينظر لناهد نظرة جعلتها تضع عينيها في الأرض.. لم تعلم هل هي نظرة عتاب أو نظرة طلب القصاص؟

عصام: سيادة المستشارة، أطلب البراءة لموكّلي.. إنه ضحية لظلم الكبار، وكم ظلموا من أبرياء!

أخذ يدافع عنه ويتحدث عن الظلم، وكانت كل كلمة كخَنْجر يطعن به قلب ناهد. فهناك حديث آخر تقصده الكلمات.. حديث القلوب والذكريات.

أنهى عصام مرافعته.. فأطلقت المستشارة قدميها للريح، وفي قرارة نفسها أنها لن تعود لهذه القضية.

- عانق رزق عصامًا طويلاً.

رزق: كانت مرافعة رائعة.. مبارك البراءة.

عصام: ولكن الحكم بعد المداولة.

رزق: لا مداولة ولا يحزنون.

لك عندي مكافأة كبيرة.

عصام: شكرًا يا أفندم.. هذا واجبي.

* * *

تجلس بعض وكيلات النيابة وبعض القاضيات في نادي القضاة يتحاورن فيما حدث للمجتمع، من بينهن هبة.

هبة: أرأيتن كيف أحدثت القوانين والقرارات التي صدرت هزّة في المجتمع، أصبحت المرأة متنمّرة، والرجل مستضعفًا، فالمرأة في بيت زوجها وعند أول خلاف ترفع قضية نفقة، فتحكم لها في خلال أسبوع، فتنام معه على فراش واحد، ومعها حكم المحكمة تستطيع أن تسجنه بادّعائها عدم النفقة عند أول خلاف، وتستطيع أن تأخذ كل ما في البيت – إن هي أرادت – بمجرد رفعها قضية، وتترك زوجها على البلاط، فإما أن يقبّل رجليها لترحمه، وإما

الطلاق.

ردت أخرى: معك حق.. وزادت نسبة الطلاق في المجتمع بطريقة مفزعة راعبة تهدّد المجتمع بالانهيار، وضياع مفهوم الأسرة المتوارث، مع كل قانون جديد يصدر لتمكين المرأة، وأصبحت الشوارع ملأى بالأطفال، بسبب الطلاق والمشاكل الزوجية، ناهيك عن انتشار الزنا.

وانتشرت العنوسة حتى وصلت إلى نسبة مخيفة، فالنساء بين مطلقة وعانس، وفي طريقها للطلاق أو الخلع، ولم يتبقَّ إلا نسبة قليلة من الأسر المتماسكة، جلُّهم من المتدينين.

ردت أخرى: وهناك أمر غريب.. صار من يريد الزواج يبحث عن المنتقبات والمتدينات، حتى صار عرفًا جديدًا في المجتمع: من تريد الزواج فعليها بلبس النقاب أو الخمار على أقل تقدير؛ أملاً في الحصول على زوج؛ حتى يضمن الزوج أنها ستطيعه، ولن يقضي شهر العسل في السجن أو على البلاط عند أول خلاف، وها هو التديُّن يزداد انتشارًا في المجتمع كل يوم.

هبة: أرأيتن رد فعل الرجال؟ لقد بدأ الرجال الموتورون في عمل جمعيات لحقوق الرجل، يطالبون بمساواته بالمرأة، وجعلوا

همَّهم في البداية مطالبة المرأة بواجباتها كما نالت حقوقها.

ردت أخرى: لقد وصل صدى ذلك إلى البرلمان.. تقدّم الرجال بمشاريع قوانين لجعل المرأة تؤدي واجبات المواطنة كما أخذت حقوقها.. وكان أهم مطلب أن تلتحق بالجيش حتى تؤدَّب وتعرف أن لها خصوصية.

ردت أخرى: مع أنه قد حدثت ثورة في البرلمان من الجانب النسوي من هذه المطالب، وأن للمرأة خصوصية، وأن في هذه المطالب تدميرًا للأسرة، وزيادة العنوسة.. إلا أنهن لم يستطعن مجاراة النواب.

هبة: ولماذا لم يسألن الرجال: ما هي السن التي تدخل المرأة فيها الجيش؟

ردت أخرى: سألنهم، وكان رد الرجال: مثل الشباب، وبنفس القوانين؛ حتى يكون هناك مساواة.

ردت النائبات: والفتاة المتزوجة، والحامل، والمرضع، ورعاية الأطفال، سيتحول المجتمع إلى مآس.

رد الرجال: نجعل سن الزواج بعد الجيش، فيكون من ضمن أوراق الزواج الكثيرة التي تضغط منظمات المرأة لتقنينها تحديدُ

الموقف من التجنيد، فأنتن من نادَين بجعل سن الزواج ثمانية عشر عامًا، ولا نعلم لمَ هذه السن بالذات؟

لماذا لا تكون سبعة عشر عامًا أو تسعة عشر، فنقترح السن ثلاثة وعشرين عامًا، أو أن تأخذ معافاة من الجيش؛ أي: إن من شروط عقد الزواج شهادة التجنيد.

ثارت ثورة النساء: هذا سيجعل البنات عوانس.. أترضون ذلك لبناتكم؟

رد الرجال: كما أن هناك حقوقًا، فهناك واجبات يا هوانم.

ردت أخرى: إنها مأساة جديدة للمرأة، ولن نجد بدًّا من الرضوخ للموجة العاتية، فكان كل مطالبتنا بحقوق المرأة، ولم نكن نهتم بمبدأ «الحقوق والواجبات»، والآن سنطالب به، ولن نستطيع التنصل منه، وفي موضوع التجنيد بالذات، خاصة مع مناصرة جمعيات المرأة الغربية والغرب عمومًا لتجنيد المرأة، لا سيما أن له أضرارًا لا تخفى على أحد، من العنوسة وقلة المواليد...إلخ.

* * *

يتم اجتماع عاجل لقيادة الجيش لحل هذه المعضلة الجديدة،

وكيف سيتصرفون مع تجنيد المرأة؟ ويحضر الاجتماع السيدة عصمت كممثلة للمرأة، مع بعض ضابطات الجيش، ويخرج الاجتماع بعد مناقشات حامية بالقرارات التالية، والتي تقرؤها السيدة عصمت على المجلس:

١- أن يصير لكل لواء من لواءات الجيش نائبة من ضابطات الجيش تراعي شؤون المجندات، وبعد مدة يمكن أن تصير النائبة هي قيادة اللواء برتبة لواء.

٢- أن يتم الفصل التام بين المجندين والمجندات في أماكن الإقامة؛ حتى لا يحدث انحلال أخلاقي.

٣- من يثبت أنها تزوجت أو حامل أو مرضع بعد بداية تطبيق القوانين الجديدة تعتبر هاربة من التجنيد، وتحوَّل إلى محاكمة عسكرية.

٤- يتولى تدريب المجندات مدرِّبون من الرجال لمدة حتى يتوفر المدربات.

٥- يتم السعي في تنفيذ هذه القرارات بمجرد نهاية الاجتماع.

يُحدث موضوع تجنيد المرأة هزة شديدة في المجتمع أكثر من الهزات السابقة، فالمخطوبة إما أن تنهي خطوبتها، أو تصبر حتى

نهاية الخدمة العسكرية، أو تغامر وتتزوج وتصبح مطاردة ومطلوبة لمحاكمة عسكرية بتهمة التهرب من التجنيد.

أما المتزوجات، فتم استثناؤهن من القرارات الجديدة؛ لأنهن ستصبحن مطالباتٍ بالطلاق.

تم تجنيد أول دفعة من الفتيات، وتخلّف عدد كبير منهن، فتم القبض على معظمهن وتحويلهن إلى محاكمة عسكرية.

تغيَّر وجه المجتمع، فالفتيات أصبحن ما بين مجنَّدة وسجينة وهاربة من التجنيد، والآباء والأمهات لا يعلمن كيف التصرف مع الواقع الجديد، وقد وئدت أحلامهم في ستر بناتهن، وأصبح المجتمع على وشك الانفجار، ولولا صبر الشعب الذي لا يحرّكه شيء، لقامت ثورة، ولكن هيهات هيهات!!

أثناء التجنيد لوحظ تحويل الفتيات المنتقبات إلى المخابرات العسكرية لسؤالهن عن أفكارهن، ورفض تجنيدهن، ويتم إعطاؤهن شهادة معافاة، فكان عاملاً مساعدًا على انتشار النقاب.

* * *

ريهام بنت وزير الداخلية جالسة في غرفتها تبكي، لم تذهب

إلى الكلية منذ ثلاثة أيام، وحالتها النفسية تزداد سوءًا، حاولت أمها تهدئتها، ولكنها لم تستطع مجاراتها في الحوار، وكادت أو اقتنعت برأيها.

يأتي وزير الداخلية من العمل، يجد زوجته شاردة.

الوزير: ما لك يا أم أحمد؟

أم أحمد: ريهام في حالة يرثى لها، لم تذهب إلى الكلية منذ ثلاثة أيام.

الوزير: هل هناك أحد أحزنها؟ سأخرب بيت رئيس الجامعة!

يدخل على ابنته، جالسة على السرير: ما لك يا ريهام؟ من أحزنك يا حبيبتي؟ قولي لي ما حدث، وسترين ماذا سأفعل بهؤلاء الأوغاد في الجامعة؟

ريهام: كل شيء حولي يحزنني، أصبحت لا أعرف الصواب من الخطأ، إن هذه الحياة لا تستحق أن أعيش فيها.

الوزير: إلى هذه الدرجة، احكي لي كل شيء بالتفصيل، ولا تخشي شيئًا.

ريهام: لي زميلة في الدفعة، أدب الدنيا اجتمع فيها، ليس هناك إنسان كامل، إلا هذه الوحيدة التي أظنها كاملة، قمة الأخلاق

والأدب والاحترام والجمال وحب الآخرين، ونَصِفها بدُرّة الكلية، الأولى على الدفعة، من لا يفهم منا شيئًا لا تبخل عليه، رأيتها بعيني يضطهدونها ويطردونها من المدينة الجامعية، تخيّل الأولى على الدفعة تطرد، فبحثنا لها عن سكن عند إحدى زميلاتنا، وأصبحت كل يوم تقف أمام البوابة تستعطف الحرس أن تدخل، وفي امتحانات «الميد ترم» يأتي رئيس الجامعة وعميد الكلية ووكيل الكلية وجيش معهم، ويقولون: إما أن نرى وجهك وإلا الطرد، أرتهم وجهها وهي تبكي من الهلع والخوف، وبعد ما ساروا غطّت وجهها، لا أعلم كيف عرفوا، أتوا بسرعة وزاد عددهم أضعافًا، قالوا لها: لا بد أن تظلّي هكذا طوال الامتحان حتى يراك من يريد، وإلا الطرد من الامتحان والرسوب.

الوزير: هؤلاء الأغبياء! يا ريهام يا حبيبتي، أليس هناك غش في الامتحانات وأمور أمنية؟ لا تفكّري بعاطفتك دون عقلك.

ريهام: غش! هل حبيبة تغش؟! يا أبي إن من يغشون معروفون ويتركونهم، تخيل أن أمين اتحاد الطلاب أكبر غشاش، ويغش أمام الجميع، وأسوأ شخصية تراها في حياتك، وما هو الأمن الذي ستضرُّه حبيبة؟!

الوزير: أليس من الممكن أن يدخل رجل في ملابسها؟

ريهام: يا أبي، أنت تقول هذا الكلام! ما المانع أن يجعلوا امرأة تكشف عن شخصياتهن؟!

الوزير: ريهام، أريد أن أعرف كيف ينتشر النقاب والملتحون والأفكار المتطرفة في وسط الطلبة؟

ريهام: يا أبتِ، إن واقع الجامعة سيئ؛ فالشباب تائه وتافه، ولا همَّ لهم إلا معاكسة البنات والحديث عنهن بأقذع الألفاظ الجارحة، والمخدِّرات تباع علنًا في الكلية، والبنات كثيرات منهن تهين نفسها ومستقبلها وأهلها بيدها، فتجد الزواج العرفي منتشرًا، لدرجة أن كثيرًا ما نسمع أن فلانة حامل وأجهضت نفسها، على حين أن الملتحين والمتدينين والمنتقبات والمتدينات لهم صورة أخرى، لدرجة أن أفجر الشباب يصرّح أنه عندما يتزوج سيبحث عن منتقبة؛ لأنه لا يثق في أولئك البنات، فلا يأمن أن يترك في بيته واحدة من أولئك... (ويسبُّهن بأقذع الألفاظ)، أصبحت المنتقبة والمتدينة أمل الشباب، كل الشباب، وصارت الفتاة التي تريد احترام نفسها من المعاكسات، أو التي تريد الزواج، أفضل طريق لها هو النقاب؛ ولكن يا أبي، لمَ تحاربون التدين؟

الوزير: أنا يا بنتي لا أخفيك أني غير مقتنع بما يحدث، ولكن أنا رجل أمن لا فكر، وللأسف أصحاب الفكر والنفوذ في بلدنا لا يصلحون إلا للعمل عساكر أمن مركزي، حاولت إفهامهم أن الفكر لا يواجه إلا بالفكر والحوار، ولكن كأنهم متأكدون أنهم سيخسرون أي حوار، فيدفعون الأمن للمواجهة، لدرجة أننا نحمي هؤلاء المثقفين والمشايخ والكتاب من مجرد المناقشة، فمطلوب منا أن من حاول مناقشتهم على الملأ أن ننهره ونحتجزه، ولو حاول الوصول إلى أحدهم للحوار يعتقل، فصرنا نحمي أولئك الأوغاد من مجرد الحوار، مع أن المطلوب منهم أن يسعوا هم للحوار، أنا أعلم أنه لا يهمهم إلا بطونهم وحساباتهم البنكية، ويظهرون في الإعلام يسبُّون التطرف والإرهاب وبعض الكلام الذي يعجب الغرب، ولتذهب البلد إلى الجحيم، وقد حذرتهم كثيرًا، ولكن ما باليد حيلة.

ريهام: وزير الداخلية ليس بيده حيلة!

الوزير: يا بنتي، أنت لا تعرفينهم، هم لا يملّون من الحديث عن الحرية والحوار وقبول الآخر، ويريدون ذبح من يعارضهم، تخيّلي لو أن بنت واحد منهم حاورته كما تحاورينني، والله لقتلها أو

ضربها وحبسها، يا لهؤلاء الأغبياء! قلت لهم: لن تفيقوا حتى تروا نساءنا جميعًا منتقبات.

يرن هاتف الوزير.. يستمع لمحدّثه.. حاضر يا أفندم.. مع السلامة.

ريهام: ما لك يا بابا؟ يبدو أن هناك ما أهمَّك.

الوزير: نعم يا بنتي، لقد تمّت إقالتي، طلبوا مني تقديم استقالتي.. يا لهؤلاء الأغبياء.. لا يريدون صوتًا للحكمة.

ريهام: لعله الخير يا بابا.

الوزير: إنهم لا يتحملون صوت العقل، ولا يحبون الحوار، وستكون نتيجته وبيلة عليهم.

ريهام: معنى ذلك أنهم سيزدادون قسوة على زميلاتي المنتقبات.

الوزير: سيزدادون تخلفًا وإجرامًا، وسيتضاعف عدد زميلاتك المنتقبات، تبًّا لهم!

* * *

تم إعداد مركز التدريب لاستقبال المجندات، وسيقوم الرقيب

حمدي بتدريبهن، ومنذ صدر قرار تدريب حمدي لهن صار الجميع يتغامزون عليه ومعه، فقائل: افرح يا عم، وقائل: ارفق بالجنس الناعم، وهناك من يغمز له بعينيه، وصار حمدي الرجل الذي سيروّض الأنوثة، ويغترف من بحارها ما يشبع شهواته.

عزم حمدي أن يتعامل معهن كما يتعامل مع المجندين، وأن يظهر لهن العين الحمراء، ومعاني الرجولة، وكانت هذه أيضًا نصيحةَ قائد المعسكر.

استقبل حمدي المجندات، وأعطاهن درسًا في التجنيد، وأنه يعلّم الرجولة، ويصنع الرجال - وأضاف إليها -: والنساء، ويصنع من الفسيخ شربات... إلى آخره.

ذهبن إلى غرف المعسكر لينمن بعد رحلة عناء.. وأخذن يستهزئن بكلام الرقيب حمدي.

في السادسة صباحًا تنطلق الصيحات والأبواق لعمل طابور الصباح.

يلبسن ملابس التجنيد ويقفن في الطابور، ولكن بدون نظام، وأخذن يتثاءبن، ويقفن بلا نظام.

أراد حمدي أن يريهن العين الحمراء حتى يحترمنه، فاختار

واحدة منهن ليجعلها عبرة لهن.

أخرجها أمام الطابور وقال لها: ازحفي.

قالت: لست أفهم.. ماذا تعني؟

- ازحفي على بطنك.

- نعم، كيف؟

- نامي على بطنك، وتحركي وأنت نائمة على بطنك.

تصرخ الفتاة: يا لهوي!.. وتصوّت بأعلى صوتها، ومن ورائها جميع الطابور، ويمسكن بحمدي يضربنه، حتى يأتي قائد المعسكر والجنود لتخليصه من أيديهن، فينجو بأعجوبة، ويرسلونه إلى المستشفى العسكري بين الحياة والموت.

قائد المعسكر: لماذا فعلتنَّ ذلك بالرقيب حمدي؟

تعلو أصواتهن: إنه أراد أن يتحرش بنا.

قائد المعسكر: اصمتن.. اصمتن الآن.

يتحدث قائد المعسكر مع باقي الضباط والمساعدين: إن هذا الموضوع لو خرج من هنا ستصبح فضيحة للجيش كله، وغدًا ستأتي منظمات حقوق المرأة لتتابع موضوع تجنيد النساء، ولا بد أن نتجاوز ما حدث، وأن لا يذكرن ما حدث لأحد.. سيتولى

التدريب النقيب علاء.

النقيب علاء أمامهن في قمة الرعب، خائفًا أن تحدث أي مشكلة، أو يتهمنه بالتحرش، فيضيع مستقبله وسُمْعته وحياته الزوجية.

النقيب علاء: أرجو أن تتحملن هذه اللحظات في التدريب، ونحن جميعًا إخوة في الوطن، وأنا من أشد المنادين بالمساواة بين الرجل والمرأة.

تقول إحداهن: ولكن نحن لا نستطيع المساواة مع الرجال في التدريب؛ حتى مباريات التنس والطائرة يراعى فيها طبيعة المرأة.

علاء: طبعًا! إن للمرأة خصوصيات، وأنا من أشد المنادين بخصوصية المرأة.. الطابور ساعة واحدة.. كل واحدة منكن تنفّذ بعض التدريبات اليسيرة، ومن لا تستطع، فلا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها.

كان كلام النقيب علاء رقيقًا يراعي طبيعة المرأة.. وهن اكتفين بمشاهدته وهو يؤدي التدريبات ويتغامزن، كأنه قرد يقفز في الهواء في السيرك أو في حديقة الحيوان، وهن يضحكن على حركاته.

انتهى التدريب وأحس النقيب علاء أن حياته بعثت من

جديد.

* * *

تزداد الهزات في المجتمع، ويظهر أثرها في بنيان جمعيات المرأة، فمشاكل المرأة ومواقفها في النيابة والقضاء، وزواج حنان ونيفين واستقالتهما من مجلس الشعب......إلخ.

وأتت الحملة الأخيرة على المنتقبات بأثر عكسي، وازددن أضعافًا، فضلاً عن ظهور هذه الجمعيات بأنها لا تدافع إلا عن العري وحرية التعري والشذوذ، فتظهر في هذه المواقف مدافعة عن المرأة، أما غير ذلك فتبدو وكأنها متواطئة، أو هي التي تسعّر الحرب على المرأة.

تدعو السيدة عصمت لمؤتمر للناشطات في مجال المرأة وحقوقها؛ لدراسة التطورات الأخيرة والهزات التي حدثت.

يبدأ المؤتمر وتلاحظ عصمت أن الحضور من الناشطات تغيرت طريقة ملابسهن، فمعظمهن يغطّين شعورهن، وبعضهن منتقبات، فأسقط في يدها، وأحست أن هناك تغيرات - ولا بد - حدثت في تفكيرهن.

تدع عصمت الجمال للأستاذة إنجي حسني لتقديم المؤتمر؛ فواضح أن اليوم غير أمس، وعليها ألاَّ تعرِّض نفسها لموقف محرج.

تتحدث إنجي عن التقدم في قضايا حقوق المرأة، ومع ذلك يحدث تقهقر ومقاومة من القوى الرجعية والمتطرفين والظلاميين في المجتمع، ولا بد أن نكون صرحاء مع أنفسنا، فللأسف زميلاتنا في النيابة والقضاء ومجلس الشعب لم يثبتن أنهن يفقن الرجال، ولنا عتاب لهن، ونريد أن نعرف وجهة نظرهن.

تطلب هبة – وكيلة النيابة – الحديث، وواضح من ظاهرها – حيث لبست خمارًا وجلبابًا طويلاً – الذي ينبئ عن باطنها، أنها تغيّرت.

-لقد كنا نتحدث عن حقوق المرأة بطريقة نظرية، وعندما نزلنا إلى واقع المرأة العملي رأينا عمق المشكلات التي تعانيها المرأة، وجدنا الطموحَ الحقيقي للمرأة ليس في العمل الخارجي، ولا في المشاركة السياسيَّة، ولا في أنشطة الجمعيَّات، وإنَّما أولاً وأخيرًا في بيتها، مع زوجها وأولادها.

تقاطعها إنجي: ما هذا الذي تقولينه؟! إنك تدمّرين كل ما صنعناه!

هبة: أرجو عدم المقاطعة، وسأعرض وجهة نظري وما خبرته بنفسي، وبعد ذلك نتناقش.

لقد كنا نعتقد أنَّ المرأة الصالحة هي التي تعمل خارج بيتها، وتنافِس الرجال في الجليل والحقير؛ وأن ربَّة البيت هي امرأة تافهة مسكينة، مُعرَّضة لكلِّ أنواع الاستغلال والإذلال.

أما الآن، فوصلت قناعتي إلى أنه لا بد أن نهتم بالجانب الأخلاقي والديني عند المرأة؛ حتى نطهِّر المجتمع من الجرائم التي تنتشر فيه بسبب ضعف الوازع الديني والخُلقي عند المرأة.

ثم أخذت تسرد لهن بعض الجرائم التي حققت فيها، ودور المرأة فيها.

- يسود لغط وهمهمات.

- إحدى القيادات النسائية – وهي شيوعية، أو كما يقولون: يسارية - تأخذ الحديث: واضح أن هناك ردَّة فكرية حدثت للوكيلات اللائي يفترض أنهن رأس حربة لقضية المرأة، وإن الحديث عن حاجة المرأة إلى الدين هو الدخول في دروب الشعوذة، وإن هذا الكلام سيجعل كل الدعم الذي يأتينا من الغرب ينقطع.. أبعد أن سرنا في طريق تحرير المرأة من كل القيود الدينية

والاجتماعية والعادات والتقاليد نهوي في بئر الشعوذة؟!

يثور عدد من الحضور، وتعلو أصواتهن: وهل الدين شعوذة؟! وهل الأخلاق شعوذة؟!

هبة: أرجو إفساح المجال لإكمال وجهة نظري.

– ترد هبة: أنت تجلسين في مكتبك المكيَّف ولا تدرين عن الواقع شيئًا، واقع المرأة التي تكافح من أجل لقمة عيشها، والمرأة التي أدى بها الانحلال والبعد عن الدين والأخلاق إلى بيع كل شيء.

وأخذت تدلّل على وجهة نظرها بسرد بعض المواقف.

لقد رأيت من قتلت زوجها وابنها، ومن جعلت بناتها يسرن في طريق الرذيلة.. لقد رأيت أهوالاً، حتى تيقنت من قولهم: إن المرأة إذا عشقت، تضحي بكل شيء، فلا يعنيها زوجها أو أولادها أو عائلتها.. أليس تقوية الدين والأخلاق في نفسها يجعلها عضوًا فاعلاً في المجتمع.. إن المرأة إذا لبست رداء الدين والأخلاق تستطيع أن تجعل المجتمع يلبس هذا الرداء، وإذا خلعته خلعه المجتمع.

ترد اليسارية: وكأن الرجال كلهم أهل تقوى!!

هبة: ما خبرناه أن الرجل ليس له تأثير كالمرأة؛ فالمرأة هي

عماد المجتمع، ولربما كان أفسق الفسّاق؛ ولكنه يحاول المحافظة على بيته، وألا تصل الخطيئة إلى أهله؛ إلا الديُّوث الذي أخبر عنه النبي ﷺ.

تطلب سيدة منتقبة الكلام – وهذه أولَ مرة تظهر المنتقبات ضمن الحقوقيات – تحاول إنجي التشويش عليها، والنظر بعيدًا عنها؛ حتى تملَّ وتنزل يدها، ولكنها تصمم على طلب الكلمة.

إنجي: ومن أنت حتى نعلم من تتحدث؟ ونحن كلنا نساء فأظهري وجهك.

المنتقبة: أنا نيفين عضو مجلس الشعب سابقًا.. وهناك تصوير وإعلام، فكيف أظهر وجهي؟!

إنجي: نيفين من تقول ذلك! إذن فبطن الأرض خير من ظهرها، ماذا حدث لكن؟!

نيفين: بداية لا بد أن نتفق على حرية الفكر، وأن الرجوع إلى الحق فضيلة.

إنجي بتهكّم: الرجعية والظلامية والتخلف.. أذلك هو الحق؟!

نيفين: لا بد أن نعترف أننا قد تعرّضنا لعمليةِ غسيل مخ، حتى صرنا ننظر للمرأة ونطالب لها بالحرية وفقًا للمفاهيم الغربية، بعيدًا

عن ديننا وتقاليدنا، ولقد استغرقنا من الوقت الكثير لكي نُفيق متأخرًا، بعد ما أصاب المرأة والمجتمع كله بآثار لا تخفى على من عنده ذرة من عقل، وحتى نكتشفَ الحقوق التي تريدها المرأة، والحياة التي تريد أنْ تعيشها، وليس ما أراده لها الآخرون.

كنا نحضر مؤتمرات المرأة، ونطالب مع الأخريات بما يضيع المجتمع ويقضي على الدين؛ فالمرأة حُرَّة في جسَدِها تهَبُه مَن شاءَتْ، وتتحرَّك بإرادتها متى وكيف شاءت، فلا دين يَحْكُمها، ولا زوج يَأْمُرها، ولا أب يؤدِّبها، ولا قرآن يَهْديها.

ولا يهمنا أن نعمل على نَشْر الشُّذوذ الجنسي والإباحيَّة بلا خجل أو وجَل، وكأننا لا نؤمن بربنا وقرآننا وبالآخرة؛ وكأنه ليس هناك جنة ولا نار ولا حساب.

ماذا كسبت المرأة والمجتمع بعد كل ما نالته؟

ألم تتردّى في مستَنْقَع الفاحشة والعُرْي والزِّنا، والخنا والإباحيَّة، والإسفاف بالأخلاق، والتميُّع بالقِيَم، فماذا حصد المجتمع من وراء ذلك؟

ما حصد إلاَّ انتهاك الأعراض والحرُمات، وفساد الأخلاق وانحلالها، وانتشار الفواحش والعُرْي علنًا، وتمرُّد المرأة على زوجها

وأهلها.

ألم تقرأن كلمات لأحد أقطاب الاستعمار حيث يقول: «كأس وغانية تفعلانِ في الأمَّة المحمديَّة ما لا يفعله ألفُ مِدْفع؛ فأغرِقوهم في الشهوات والملذَّات»؟

كم خُدعنا باسم المدنية الحديثة والتقدُّم، ويا ليتنا نتقدم في التكنولوجيا والصناعة، ولكنهم يدعوننا إلى التقدم في الإباحية والفجور والاختلاط؛ ليتدنس المجتمع، فيسهل الصيد وتقع الفريسة! الفريسة المرأة؛ ولماذا المرأة؟ لأنَّها قاعدةُ الأُسْرة، والأُسْرة نواةُ المجتمع.

ما رأيكن فيما يبثُّه الإعلام من أفلام ومسلسلات وبرامج؟ وما رأيكن فيما يحدث في الجامعات والمعاهد من اختلاط وفواحش يندى له الجبين؟!

أليس باسْم الصداقة والزمالة، وتحت شمَّاعة الحُرِّية ودعاوى الحبِّ والرومانسيَّة هُتِكَت أعراض الفتيات، وانتشر الزواج السرِّي والعرفي، وزواج الدم بين الطَّلبة والطالبات، فحدثت الخلْوَة، وأطلق الشيطانُ سمُومه ووسوستَه ووقع المحظور، ولما فاحت رائحة الجريمة وانتفخت بطون البنات، اكتشف المجتمع والأهل هوْلَ

ومصائِبَ الاستماع لخفافيش الظلام من أدْعِياء التقدُّم والتحرُّر بعد أن فات الأوان.

إنجي: لا أسمح لك أن تسبّينا هكذا، ولأول مرة أسمع من يطلق على التقدميين خفافيش الظلام، وألست من كنت تحاربين تعدد الزوجات، ثم هويتِ في بئره الآسن؟!

نيفين: إن المجتمع لا يعاني من ديكتاتورية القرارات التي يتخذها مجموعة ضئيلة لتدمّر المجتمع فقط؛ بل يعاني من ديكتاتورية الأفكار أيضًا، فمن يدعو إلى الفضيلة لا بد وأن يلتصق به وصف «الظلاميين».. إن الأمور أصبحت واضحة لكل ذي عينين، ولماذا نحارب تعدد الزوجات؟ هل هو من حقوق المرأة؟ كيف نتحدث عن تعدد الزوجات وهناك ملايين النساء ليس لهن زوج، أليس من أكبر حقوق المرأة أن يكون لها زوج وأسرة لتؤدي رسالتها التي خلقت من أجلها وتستمر الحياة على الأرض، أم يعجبك الغرب؟ الذين يستغلون النساء كالحيوانات؛ فللمرأة زوج واحد وآلاف العشاق، وكذلك الرجل، حتى إنهم صاروا لا يعلمون من هم آباء أبنائهم، وصار معظم المجتمع أبناء غير شرعيين، وهذا طبعًا بسبب الطريقة التي يحترمون بها المرأة؛ بئس العقول!

إلى أين وصلنا بالبعد عن كتاب ربنا، وتحكيم القوانين الوضعيَّة المستوردة؟

هل حصدنا إلاَّ ضياع نعمة الأمن والأمان، وظهور الحرام بكلِّ صُوَره وأشكاله، من أَخْذِ الرِّشوة، وشهادة الزور، والخيانة، والفجور، وأكل الرِّبا، وأكل أموال الناس بالباطل...إلخ.

هل حصدنا إلاَّ استعباد الغرب لنا، وتحكُّمهم في حياتنا وأموالنا وشؤوننا، والعبث بِأَمْنِنا وأخلاقنا وعقيدتنا، حتى صرنا غنيمة وقَصْعة مستباحة لكلِّ أحد، ولعبة مسلِّية بأيدي العابثين.

إنجي تصفّق بتهكم: شكرًا للداعية الإسلامية النجمة الجديدة في بزنس الدعوة على خطبتها العصماء، ولكن ألا تعلمين أن رجال الدين هم الذين يفتون بكل ما نطبّقه ويؤيدوننا؟

نيفين: طبعًا تقصدين رجال الدين الذين تلمع أسماؤهم في وسائل الإعلام، ويُدْعَون إلى كلِّ أمر يتعلَّق بالإسلام والمسلمين لِيَتحدَّثوا باسْمِهم، ويطلق عليهم هذا مفكر إسلامي وذلك مجدد إسلامي.....إلخ، في حين يُضَيَّق على العلماء الربَّانيِّين، الذين لا يخافون في الله لومة لائم، ويحاربون في أرزاقهم؛ حتى لا يتأثر بهم الناس، ويفهموا الدين والشريعة.

في حين يملأ رجال الدين على النَّمط الغربيِّ الأسماعَ، ولا تفتحين فضائية دينيَّة أو غير دينية إلاَّ وتجدينهم وكأنهم لا يذهبون إلى بيوتهم، ومن أظهر صفاتهم أنهم يتكلَّمون بحنو وأدب على غير المسلمين، ويغِلْظَة وفظاظة على المسلمين.

إنجي: طبعًا كلامك لن نأخذ به ما دمت ارتضيت هؤلاء المشايخ مفتين لك، فهم الذين يفتون أن المرأة شهادتها بنصف شهادة الرجل.

نيفين: أنت تفهمين موضوع الشهادة خطأ، ولا بد أن تتعلمي دينك، وتفهميه؛ فلا يعقل أن تتحدثي عن الفكر والفهم، ولا تقرئي في الدين من مصادره.

بالنسبة لقضية الشهادة، ومحاولة البعض استغلالَها، فإنَّ فريقًا من الفقهاء يَرْونها في الشؤون المالية حصرًا، وللمرأةِ خمس شهادات في الشريعة لا تُقبل فيها شهادةُ الرجل، وهي: (الولادة، والرَّضاع، وعيوب ما تحتَ الثوب للمرأة، وانقضاء العِدَّة، واستهلال الصبي).

فالإسلام يراعي خصوصية الرجل والمرأة، فهل يخرج جماعات من الرجال، ويقولون: نريد المساواة بالمرأة في الشهادة في هذه الأمور.

يزداد الحوار سخونة، وتتدخل عضوات أخريات، وبدا جليًّا أن هناك عودة إلى الدين بين عضوات الحركة النسوية نفسها، وكفر بالمبادئ التي كن ينادين بها، وما كان يذكر أمس كمسلّمة لن يستطاع ذكره غدًا إلا باستعداد للدخول في مناقشة حامية.

* * *

أصبح وجه أوربا كلها عبوسًا، فصار التناول الإعلامي في كثير من الدول - خاصة من الإسلاميين والمتعاطفين معهم والليبراليين الحقيقيين غير المتاجرين بالقضايا الحقوقية – كأنه يشير بيده ويصيح: هذه هي أوربا التي تدَّعي الحرية، تضطهد المرأة جهارًا نهارًا، وما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لأوربا تمسُّك المسلمات بحقهن في التستر كما أن هناك حرية التعري.

تفتق ذهن بعض أعضاء الحكومات الأوربية عن حيلة استخدموها كثيرًا من قبل:

لا بد أن نضرب هؤلاء المسلمات برصاصة في قلوبهن، إننا نملك نصرة أكبر مؤسسة إسلامية في العالم، فدائمًا ما نلجأ إليه ليحل لنا المعضلات، فهو الذي وقف معنا عندما منعنا الحجاب

ضد هؤلاء المسلمات في التعليم، بل إنه خاطبهم بقسوة شديدة عندما قال: من لا يعجبه يضرب رأسه في الحائط، ولا شك فإنه سيقف معنا في منع النقاب، والشيخ سلامة صديق، ولن يرد لنا طلبًا، وعموما نحن نعدُّ جيلاً من الأزهر، انتماؤهم له بالاسم فقط، وهم غير مقتنعين ولا ملتزمين بدينهم، ويرتكبون الفواحش التي يحرّمها دينهم، وهذا الجيل سينجح بالغش ونسهل له الحصول على الماجستير والدكتوراه، ثم يصبحون هم قادة الإسلام.

يرد أخر: لا بد أن نضع في حساباتنا أن الإسلام ليس فيه كهنوت، وهم لا يعظّمون أحدًا عندهم كما نعظم نحن القساوسة، وهؤلاء المشايخ الذين تتكلم عنهم لفظهم عوام المسلمين وأصبحوا غير ذي شأن، لدرجة أنه لم تخلع امرأة واحدة النقاب رغم حربهم الشعواء له؛ بل زاد عددهن، وفي هذا ما تعلم من الخطورة، لا بد أن يكون الأمر بالحيلة، عمومًا يمكن أن نستدعي السيدة عصمت ومشايخها كي يحاوروا المسلمات المنتقبات ويقنعوهن بموقفنا.

يرد آخر: لو لم نخض حربًا شعواء ستصير أوربا إسلامية قريبًا جدًّا، وتضيع القيم الغربية، ولا أعلم كيف يكون المسلمون بهذا الضعف والتبعية لنا، وما زلنا نضعفهم منذ قرون، ثم يغزونا

الإسلام في عقر دارنا هكذا بدون أي إمكانيات، فكيف لو كان لديه الإمكانيات؟!

يرد آخر: المشكلة أن الإسلام لا يقبل أن يعيش كأي دين، لا بد أن تكون له السيادة المطلقة، ولا أدري كيف ينتشر بهذه الصورة مع أننا نرضع الأطفال بغض الإسلام؟!

* * *

عصمت والوفد المسافر معها في المطار، تنتحي جانبًا بالشيخ سلامة والمفتي ووزير الأوقاف: هل تعلمون ما المطلوب منكم؟

سلامة: طبعًا يا أفندم، وأنا شخصيًّا على أتم الاستعداد، وسأُسمع هؤلاء المتعصبات المنتقبات في بلاد السحر والجمال ما لم يسمعوه من قبل، ولن أتهاون معهن.

عصمت: ماذا تقول يا شيخ سلامة؟! أنت الظاهر ستلقي بنا في ستين داهية، إنها فرنسا والإعلام سيغطي الحوار!

سلامة: أي حوار؟

عصمت: سنتحاور مع المسلمات والإعلام والمنظمات الحقوقية.

المفتي: أليس عندهم قوات أمن مثل هنا؟

عصمت: لا يستطيع الأمن أن يمنع أحدًا من الكلام.

سلامة: يا أفندم نحن نستفهم لأن الواقع جديد علينا، والفتوى تختلف من مكان لآخر، ونحن هنا يحدد الأمن الأسئلة والسائل، بل ومن يحضر، ولا يستطيع أحد أن يرد علينا.

عصمت: ألستم مقتنعين بما تقولون؟

ثلاثتهم: بلى يا أفندم.

سلامة: إني لأعجب أشد العجب من أولئك النساء اللاتي ذهبن لفرنسا وأوربا ليلبسن النقاب!

عصمت: معظمهن أوربيات أسلمن حديثًا.

سلامة: ومن أين عرفوا النقاب؟! عمومًا الموضوع هكذا يصبح سهلاً جدًّا، وبالتأكيد ليس عندهن أي علم، ولن يجادلننا مثل منتقبات بلدنا المتعصبات، هما كلمتان ونرجع، ولو أردتِ أن أتحدث في موضوع الحجاب وضرورة التزامهن بالقوانين في البلاد التي يعشن فيها، لفعلت.

الوزير: الشيخ سلامة سرُّه باتع، ممكن أن يجعلهن يسرن بالمايوه.. يضحك.

سلامة: ماذا تقصد يا وزير الأوقاف؟ يعني أكفّرهن بعد أن هداهن الله؟!

الوزير: وهل التي تلبس «مايوه» كافرة يا شيخ سلامة؟!

سلامة: وأنت لماذا تدافع عن لابسات المايوه؟ أيقربن لك؟ آه!

تذكرتُ: رأيت حَرَمَك المصون به مرة في مجلة.

الوزير بغضب: تنظر لزوجتي يا شيخ سلامة؟! وأين غض البصر؟!

سلامة: غض البصر مع المايوه يا وزير؟! ارحم قلوب الشباب.

يشتد غضب الوزير، ويعلو صوته.

عصمت تتابع الموقف والكلام: كفى، اصعدوا للطائرة، ولا تجلسوا بجوار بعضكم، تفرقوا.

* * *

وسائل الإعلام الفرنسية والأوربية أظهرت قدوم علماء الإسلام لنصرة القيم الأوربية، وأن المنتقبات لا بد أن يسرن وراء رجال الدين ولا يتشبثن بموضوع الحرية الشخصية، وأظهر الإعلام

الأوربي قدوم رجال الدين الإسلامي على أنه انتصار في هذه المعركة الحقوقية.

في المقابل أصدرت المسلمات في أوربا بيانًا صاعقًا لقطع الطريق على الحكومات الغربية، وانتشر البيان، وعدَّ ضربة قاصمة وصفعة على وجه المؤسسة الدينية، وجاء فيه:

«لقد نفد صبرنا من أولئك الذين باعوا دينهم من أجل عرَض قليل من الدنيا، لا يستحون أن يقبِّلوا أقدام حكامهم الطغاة على رؤوس الأشهاد، ولا يستحون بيع أي شيء، لكن أن يبيعوا ديننا نحن من أجل دنياهم، فلا، لن نسمح لهم أبدًا.

يشنّ اليوم المعيَّنون من قبل الطغاة حربًا شعواء على المرأة المسلمة العفيفة، يبرّرون لأعداء الإسلام ومبغضيه أن يهتكوا شرفها وعفَّتها.

في فرنسا مُنع الحجاب من المدارس، وكان نصير متطرفي العلمانية هو شيخ الأزهر، بل أرسل إلينا أن نضرب رؤوسنا في الحائط.

وما زالت الحرب على شرفنا وعفّتنا لم تهدأ، يتخندقون مع كل كاره للإسلام في خندق واحد أمام المسلمات العفيفات.

ماذا تفعل فتاة أسلمت وهي جميلة فاتنة، وقرأت في كتب علماء الإسلام أن العلماء أجمعوا على وجوب لبسها النقاب؟!

ماذا تفعل فتاة أسلمت في مجتمع لا يريد من المرأة إلا هتك عفّتها وشرفها ومفاتنها، ولتذهب بعد ذلك إلى الجحيم؟!

ماذا تفعل فتاة أسلمت في مجتمع يكرّم فيه الشواذ، والتي لم تمارس الزنا تكون في نظر المجتمع متطرفة؟!

أليست هذه الفتنة التي أجمع علماء المسلمين على وجوب لبس النقاب فيها؟!

ربما قال قائل: هو مستحب، فنقول - نحن لابسات النقاب -: وليكن مستحبًّا، سنلبسه ولو اضطهدنا وعذّبنا، ولتجمعوا كل مشايخ الأرض ممن باعوا دينهم بعرَض من الدنيا، فوالله لن نقيل ولن نستقيل.

فليست المرأة المسلمة كغيرها أداة مُجرَّدة للمتعة الجسديَّة في يد الرجل، ولا هي صورة جميلة أو دُمْيَة فاتنة تستخدم كسلعة يباع بمفاتنها كل شيء، حتى أحذية الرجال.

ونعلن نحن المسلمات في أوربا أنه إذا لم يتوقف هؤلاء المشايخ الذين يحاربون عفَّتنا وحياءنا عن دورهم الخبيث، فسنخرج في

مظاهرات في كل أوربا، وسنعلن براءتنا منهم ومن المؤسسات التي يمثلونها، فنحن أسلمنا لاقتناعنا بالإسلام، لا لشيء آخر».

انتشر البيان انتشار النار في الهشيم، وأحرج الوفد الآتي لنصرة القيم الأوربية.

تدخلت الجهات السيادية لانتشال الأزهر من هذا المأزق، وتم الضغط على وسائل الإعلام الداخلية لعدم الخوض في هذا الموضوع؛ بيد أن الضغط لم يؤت ثمرته؛ بسبب الإنترنت والفضائيات، التي تلقَّفته، وأصبح المادة الإعلامية الرئيسة في معظم البرامج والتحليلات، وكأنه إعلان بسقوط علماء السلطان، وأنهم أصبحوا عبئًا على الإسلام والمسلمين.

وأخذت تعلو أصوات المنادين بإصلاح الأزهر – كما يحدث في كل مشكلة – وأن يكون شيخه بالانتخاب لا بالتعيين.

* * *

بدأ اللقاء في جو مشحون.. على المنصَّة عصمت، والشيخ سلامة، واثنتان من الوفد المصاحب لها، ومعهن عائشة محمد المسلمة حديثًا، وممثل لحقوق الإنسان.

بدأت عصمت بالحديث عن الحوار وأنه قيمة إنسانية، ولا بد أن نتحاور من أجل فهم الآخر، وحيث إن الموضوع ديني، فالكلمة للشيخ سلامة؛ حتى يوضح الأمر من الناحية الدينية.

بمجرد ذكر الشيخ سلامة، هبّت ثورة عارمة من المسلمات حديثًا.

لابسة خمارًا: ليس في الإسلام كهنوت، ونحن أسلمنا لله، ونحن لا نثق في كلام الشيخ سلامة.

الشيخ سلامة: لحوم العلماء مسمومة، وأنتن دخلتن الإسلام حديثًا، ولا تعلمن شيئًا عن الإسلام، والله تعالى يقول: M * + , - . / 0 L.

منتقبة: وهل أنت أهل الذكر؟! إننا لا نراك إلا حيث يحارب الإسلام، ونفتقدك حين يطلب نصره! دعنا وشأننا.

يزداد اللقاء وسخونة، ويزداد الهجوم على الشيخ سلامة.

تميل عائشة على عصمت طالبة منها الكلمة لتهدئة المسلمات.

عصمت: مع السيدة عائشة محمد.. تفضلي.

السلام عليكم ورحمة الله.

سأحكي لكم قصتي، ولماذا أحارب من أجل نقابي؟

أنا عائشة محمد، كان اسمي كريستين، فرنسية، ولدتُ في باريس، ترعرعْتُ كأيٍّ فتاة فرنسية، أركِّز كلَّ انتباهي على تلك الحياة البرَّاقة في باريس، والتي تعدُّ بقْعة ساخنة للباحثين عن تلك الحياة، ومن الطبيعي أنِّي فعلتُ ما تفعله معظم الفتيات الفرنسيات؛ ركَّزتُ على مظهري وجاذبيتي، وأصبحَتْ قيمةُ ذاتي معتمِدة على مَدى الانتباه الذي أحصُل عليه من الآخَرين، وأنتشي عندما أُمدح، والمدح للفتاة هو مدح الجسد والمفاتن، والذي يجعل الفتاة جسدًا بلا روح.

مرَّت السنون، وصرت أدْرك أن إحساسي بتحقيق ذاتي وإحساسي بالسعادة ينخفضان كلَّما ازداد «إغرائي كأنثى»، كنت أمَةً (للموضة)، كنتُ رهينة لمظهري الخارجي.

بينما ازدادَتِ الفجوة تدريجيًّا بين تحقيقي لِذَاتي ونمط حياتي، بدأْتُ في الهروب من المشروبات الكحوليَّة والحفلات، ولجأتُ إلى ممارسة التأمُّل، والعمل كناشطة سياسيَّة، واعتناق أديان بديلة، وازدادَتِ الفجوة اتِّساعًا حتىَّ أصبحتُ كالوادي السَّحيق، وأدركتُ مؤخَّرًا أنَّ كل ما أفعله كان مسكِّنًا لآلامي، وليس دواء ناجعًا.

وفي مرة شاهدت وابِلاً من الاتِّهامات على دين اسمه الإسلام، وعلى الثقافة الإسلامية وقِيَمها، وأن هذا الدين إرهاب، فبدأْتُ ألاحظ شيئًا يسمَّى الإسلام.

إلى هذا الوقت لم يكن يرتبط بمخيَّلتي حينما يُذكَر الإسلام إلاَّ نساءٌ مغطَّاة «بخيام»، وأزواجٌ يَضربون زوجاتهم، والحريم، وعالَمٌ من الإرهاب.

وكناشطة في تحرير المرأة تَسْعى إلى تحقيق عالَم أفضل للجميع، تَقابل طريقي مع طريق ناشط آخَر، يَسبقني في تأييدِ وتعزيز أسباب الإصلاح والعدالة للجميع، وبدأْتُ الاشتراك مع معلِّمي الجديد في حَملاته، وكانت في ذاك الوقت تخصُّ الإصلاح الانتخابي والحقوق المدنية.

وبعدَها أصبحَتْ فعاليتي مختلفة، فبدلاً من تأييدي ودفاعي عن العدالة بصورة انتقائية لبعض الناس، تعلَّمتُ أنَّ المُثل من العدالة والحرِّية والاحترام مقدَّر لها أن تكون، وهي بالفعل ضرورية للعالَم كلِّه، وأنَّ الخير العامَّ والمصلحة الخاصَّة لا يتعارضان، ولأوَّل مرَّة أعرف ما معنى أنَّ الناس كلَّهم سواءٌ، والأكثر أهمِّيةً من ذلك أنَّني تعلَّمتُ أنَّ كل ما نحتاج إليه هو الإيمان؛ لكي نرى العالم ككِيان

واحد، ونرى الوَحْدة في الخلْق.

وفي يوم من الأيام صادَفَني الكتاب الموصوف دائمًا بصورة سلبيَّة عندَنا في الغَرْب، وهو القرآن الكريم، كنتُ في البداية منجَذِبة إلى شكْلِه، ثم بعد قليل أصبحتُ أسيرةً لطريقته في النَّظَر إلى الوجود والحياة والخَلْق، والعلاقة بين الخالق والخَلْق، وجدتُ أنَّ القرآن هو حوارٌ مبْصِر، موجَّه إلى القلب والرُّوح، بدون الحاجة إلى مفسِّر أو قسٍّ.

الشيخ سلامة: هل معنى هذا أنه ليس للعلماء دور؟ وما وظيفتنا؟ أنذهب لنبيع خضارًا؟!

عائشة: نحن نجلّ العلماء، ولكن العلماء الذين يعملون للدين وينصرون الإسلام ويصدعون بالحق في وجه الطغاة، لا الذين هم دائمًا ساجدون تحت أقدام الطغاة، ويبيعون دينهم بعرَض من الدنيا.

أكمل قصتي: ارتطمتُ بلحظة من الحقيقة، وأدركتُ أن نشاطي وفعاليتي الجديدة في تحقيق ذاتي ما هي إلاَّ مجرَّدُ اعتناقي لدِين يُسمَّى الإسلام، حيث أستطيع العيش بسَلام كمسْلِمة مؤثِّرة.

قمتُ بشراء ثوب طويل جميل، وغطاء رأس يشْبِه ما ترتديه

الفتيات المسْلِمات، ومشيتُ في نفس الشوارع والأحياء التي كنتُ فيها من أيَّام مرتَدِية (الشورت) أو (البيكيني) أو ملابسَ العمل الغربيَّة الأنيقة، على الرغم من أنَّ الناس والوجوه والمحلاَّت لم تتغيَّر، ولكنْ هناك شيءٌ واحد مختلِف بطريقة ملحوظة، أحسستُ أنني تغيَّرت، وأنِّي أشعر في داخلي بإحساس السَّلام؛ لكوني هذه المرأةَ الجديدة، شَعرتُ بأن السَّلاسل التي كانت تقيِّدني قد انكسَرَتْ، وأنِّي أخيرًا حُرَّة طليقة.

كنت سعيدة بالنَّظرات الجديدة من الناس، والتي كانت نظراتِ تعجُّب ودهشة، وليست نظراتِ الصيَّاد الذي يراقب فريسته، فجأة أحسست بأن وزْنًا ثقيلاً ارتفع عن أكتافي، لم أعُدْ أستهلك كلَّ وقتي في التسوُّق وأدوات الزِّينة، وتصفيف شَعْري، والتدريبات البدَنية، أخيرًا أصبحتُ حرة.

بين كل الأماكن، وجدت إسلامي في قلبِ ما يسمِّيه البعضُ «أكثر الأماكن امتلاءً بالفضائح على وجه الأرض»، وذلك جعَلَه عزيزًا وخاصًّا أكثر.

بينما أنا سعيدة بحجابي أثار النِّقابُ فُضُولي عندما رأيتُ عددًا متزايدًا من النِّساء المسْلِمات يرتدينَه، سألتُ زوجي المسلم، الذي

تزوَّجتُه بعد أن اعتنقتُ الإسلام، إذا كان من المفترض أن أرتَدِي النِّقاب أم أستقِرّ على الحجاب الذي أرتديه، فنصحَني زوجي أنَّه يؤْمِن بأن الحجاب فرْضٌ في الإسلام، وأنَّ النقاب ليس فرضًا، كان وقْتَها حجابي عبارةً عن غِطاء للشَّعر، ولا يغطِّي وجهي، وعباءةٍ طويلة واسعة سوداء، تغطِّي جسدي من الرَّقبة إلى قدمي.

الشيخ سلامة: لماذا لم تطيعي زوجك؟! أليست طاعة الزوج واجبة؟!

تنظر إليه عصمت أن اصمت؛ فقد اندمجت مع قصتها وجميع الحضور.

عائشة: مرَّت سنَة ونِصْف، وأخبرْتُ زوجي أنِّي أُريد أن أرتدي النِّقاب، وكان سببي هذه المرَّة هو أنني أشعر بأنه إرضاءٌ لله الخالق، وسيَزِيد إحساسي بالسَّلام؛ لكوني أكثرَ تواضُعًا، فقام زوجي بتدعيم قراري، وأخَذَني معه لِشَراء إسدال، وهو رِداء أسود واسع، يغطِّي من الرَّأس حتى القَدَم، واشتَرَينا أيضًا النِّقاب، وهو يغطِّي الرأس والوجه ما عدا العينين.

بعد ارتدائي للنِّقاب بوقت قصير، بدأَتْ تنتشر الأخبار عن سياسيِّين وفاتيكان وقساوسة ودُعاة التَّحرير ومُدَّعِي الدِّفاع عن

حقوق الإنسان والحرِّية، يقومون بإدانة الحِجَاب أحيانًا، والنِّقاب أحيانًا أخرى بأنَّه اضْطِهاد للمرأة، وعقَبَةٌ في وجه التَّكامُل الاجتماعي، ومؤخَّرًا، وكما أطلَق عليه أحد المسؤولين المصريِّين «رمز التخَلُّف».

وجدتُ أنه من النِّفاق الصَّارخ عندما تسارِع الحكومات والمجموعات المدْعُوَّة بـ«مجموعات حقوق الإنسان»، في الدِّفاع عن حقوق المرأة، عندما تَفْرِض بعض الحكومات زيًّا معيَّنًا على المرأة، بينما هؤلاء المقاتِلون من أجل الحرِّية يُولُّون أدبارَهم عندما تُسلَب المرأة حقوقَها في العمل والتعليم، عندما تَختار أن تمارس حقَّها في ارتداء النِّقاب أو الحجاب، فاليومَ عدد النساء المنتَقِبات اللاَّتي يُمنَعن من العمل والتعليم في تَزايُد مستمرٌ، ليس فقط في ظلِّ الأنظمة التي تميل إلى الدِّكتاتورية، وإنما أيضًا في الدُّول الغربية الدِّيموقراطية.

ممثل حقوق الإنسان: ليس كل الحقوقيين كذلك.

عائشة: جلُّهم كذلك.. وأنا إلى اليوم أظَلُّ مدافِعةً عن حقوق المرأة، ولكن مدافعةَ مسْلِمة تنادي النساء المسلمات بأن يأخذْنَ على عاتقهن مسؤولياتهنَّ في تقديم كلِّ الدَّعم لأزواجهن، وأن

يكُنَّ مسلمات صالحات، وأن يُربِّين أولادهن؛ ليصبحوا المنارَ للبشرية كلِّها، يأمرون بالمعروف وينْهَون عن المنكر، ولِيُدافعوا عن حقِّنا في ارتداء النقاب أو الحجاب؛ لِنُرضِي خالقَنا بأيِّ طريقة نختار، وأيضًا لينقلوا تجربتنا مع النقاب أو الحجاب إلى الأجيال القادمة من النِّساء، واللاَّتي من الممكن ألاَّ يجِدْنَ الفرصة ليفهمْنَ ماذا يعني لهن ارتداءُ النِّقاب أو الحجاب؟ ولماذا ارتديناهما بحب؟

ممثل حقوق الإنسان يطلب مداخلة: لي سؤال لعائشة: لماذا لا تلتزم المسلمات الوافدات بأعراف الدول التي يقمن فيها؟ ولماذا يضغط الأهل على المرأة لتلبس ملابس لا ترتضيها غالبًا؟

عائشة: معظم النِّساء اللاَّتي أعرفهنَّ يرتدِين النِّقاب، هنَّ غربيَّات معتَنِقات للإسلام، وبعضٌ منهنَّ غير متزوِّجات، والبعض ارتدَيْنَ النقاب بدون أيِّ تدعيم من عائلاتهن، ولا البيئة المحيطة بهن، ما هو مشترك بيننا هو أنَّ قرار ارتداء النِّقاب هو اختيارنا الشَّخصي، ولا تُوجد واحدة بيننا راغبة في التخلِّي عن هذا القرار أو الاستسلام.

فالنِّساء - شِئْن أم أبين - مقذوفاتٌ بوابل من (موضات) الملابس في كلِّ وسائل الإعلام في جميع أنحاء العالَم، والتي تدعوهن

إلى ارتداء «القليل، إلى لا شيء»، وكامرأة كانت غيرَ مسلمة فأنا أُصرُّ على حقِّ المرأة في المعرفة عن الحجاب وفضائله، وما يَجْلبه من سَلاَم وسعادة لحياة المرأة، كما حدث معي.

أمْسِ كان (البيكيني) هو رمْزَ تحرُّري، ولكنَّه في الحقيقة كان تحرُّري من روحانيَّتي وقيمتي الحقيقية كإنسانة محترمة.

ها أنذا اليوم أحيا سعيدة بتَرْكي (للبيكيني)؛ للعيش في سلام مع خالقي - عز وجل - والتمتُّع بالحياة كشخصية شريفة بين التَّابعين للإسلام؛ لذلك اخترتُ ارتداء النقاب، وسأموت وأنا أدافع عن حقِّي في ارتدائه، والذي هو ليس بحقٍّ غريب، اليومَ النِّقاب هو الرمز الجديد لتحرير المرأة.

تهزّ الكلمة «اليومَ النِّقاب هو الرمز الجديد لتحرير المرأة» عصمتَ، وتنظر لعائشة، التي تنظر إليها محرِجة لها وهي تكمل:

ورسالة منِّي إلى النساء اللاتي يظهرن الحجاب الإسلامي في صورة سيِّئة، وإلى المسلمات المتبرجات، أقول لهن: أنتنَّ لا تعلمْنَ ما تفتقدْنَه، ولو علمتن ما نحن فيه من لذة وسعادة، رغم الاضطهاد والحرب علينا، لأصبح رمز تحرير المرأة زيَّكن.

هذا رأيي وعقيدتي التي سأعيش من أجلها وأموت من أجلها،

ولا شأن لي بمن يخالفني ويضطهدني، ويحسب أننا كالأطفال لا نعي ما يحدث، فانظروا معي أيها الحضور الكرام:

فمع أنَّ الدولة الفَرنسية تزعم أنَّها دولة علمانية، لائكية، تُساوي بيْن جميع المواطنين، ولا تُميِّز بين أتباع الأديان، ولا تعترض حريتَهم في ممارسة طقوسهم الدينيَّة، إلاَّ أنَّ ما يحدث مع المسلمين يُكذِّب هذا الزعم، ففي الوقت الذي لا تتدخل السُّلطة في عمل المؤسَّسات النصرانية واليهودية، وتجد هذه المؤسَّسات كافة الحرية والدَّعم لأداء مهامِّها، لا تَحْظى المؤسَّسات الإسلامية بهذه المساواة؛ فالتدخُّل السافر للسُّلطة العلمانية في هذه المؤسَّسات لا تخطئه عين، حتى إنَّها صارتْ تفرض قيودًا وشروطًا على تعيين أئمة المساجد، وتمنع مَن تشاء من النِّشاط الدعوي داخلَ المسجد وخارجَه، الأمر الذي لا يمكن أن تفعلَه داخلَ الكنيسة أو الكنيس.

ومن القضايا التي حَشرتِ اليوم السلطةُ الفرنسية أنفَها فيه – على سبيل المثال -: أحكام الأحوال الشخصية، اللِّباس الإسلامي، خُطب الجمعة، والسعي لفرْض النموذج الغربي في صورته المتطرِّفة للأُسرة والنظرة للمرأة!

أما العجب العجاب، فتراه جليًّا في الْتحاق الجمعيات النسوية،

والناشطين في حقوق الإنسان بجوقة المعاداة للوجود الإسلامي في فرنسا، بتحريضهم السلطةَ على المسلمين، بحُجَّة أنهم يُهينون المرأةَ ويسلبونها حقوقَها الطبيعية، وركَّزت بعضُ الكتابات المغرِضة لأولئك حولَ العُنف ضدَّ المرأة المسلمة، الذي يمارسه الرِّجال المسلمون عن قصْد، وزعمَ بعضُ الحاقدين منهم أنَّ النصوص الشرعية الإسلامية تحثُّ الذُّكور، بل تأمرهم بسلْب حقوق الأنثى، والاعتداء عليها جسديًّا، حيث تنصُّ آية قرآنية على ضرْب المرأة عند نشوزها.

واقْترح أحدُهم إلغاءَ الآية، وآخرون طالبوا بطَرْد كلِّ إمام مسجد أو خطيب يدعو إلى تطبيقها على الأراضي الفَرنسيَّة، كما وجَّه بعضُهم انتقادًا لاذعًا للقرآن الكريم، معتبرًا إيَّاه تشريعًا «بطرقيًّا أبويًّا وذكوريًّا»، يجعل من المرأة كائنًا قاصرًا مدى الحياة، يقبع تحتَ وصاية الرجل، سواء كان زوجًا أم أبًا أم وليًّا، بمباركة نصوص مقدَّسة.

تخيلوا الذي يقول هذا: هل يستطيع أن يدافع عن حقي في ارتدائي ما أشاء، الحقيقة هم مستعدون للدفاع عن امرأة تريد لبس البنطال أو تنتهك قيم مجتمعها في أقصى الأرض، أما لو منعوا كل

النساء المسلمات من التعليم؛ لأنهن يردن الالتزام بالحشمة والحجاب والنقاب، بل لو ذبحوهن في مكان عام، فسيصفقون لهم، ويقولون: اروِوا الأرض من دمائهن!!

هذه هي الحقيقة الواضحة، وأرجو ممن أتى ليقنعنا بما يريده المضطهدون لنا أن يقولوا لهم: دعوهن وشأنهن؛ فأنتم تزعمون تبنِّي الحرية، فأين هي الحرية؟!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كانت كلمة عائشة زلزالاً هز قلوب الحضور، حتى عصمت التي رضعت من أمها النظرة الغربية للمرأة، وضاع عمرها في تبنِّيها والدفاع عنها، ضاعت منها الأفكار، وكانت المسلمات قد أعددن للأمر عدَّته، ودعون المناصرات لهن، فصارت المرافعات كالبركان الذي انفجر.

قامت إحداهن، وفي بيان رائع وإحصائيات قالت:

إنَّ الحملة على المرأة المسلمة وبعض الآيات القرآنية مشروعٌ بعيد المدى، هدفُه الأساسُ وقْفُ تنامي نفوذ الإسلام في العالَم الغربي، وما قضية العُنْف ضدَّ المرأة المسلمة إلا حبكة أخرى مفتعَلة، كذَّبَتْها العديدُ من الدراسات العلمية الموضوعية، التي

أجرتْها مؤسساتٌ حكومية ودولية، حولَ العنف ضدَّ المرأة في فرنسا، تُبرِّئ المسلمين ضمنًا من هذه التهمة.

تُبيِّن الإحصاءات التي توصلتْ لها هذه البحوث: أنَّ الفرنسيِّين الأصليِّين هم أكثرُ مَن يمارس العنف ضدَّ الجنس اللطيف، وفي المقابل فإنَّ نسبة المسلمين المتورِّطين في هذه الأعمال قليلة، وهم في الغالب مِن المحسوبين على الإسلام؛ لمجرَّد أنهم وفدوا مِن دول عربية أو إسلامية.

قالت أخرى: بيَّنت إحدى الدراسات أنَّ ٩١٪ من المُدانين بالعُنْف في المحاكم ضدَّ النساء هم مِن أصل فَرنسي، وفي تقارير لحقوق المرأة أصدرتْها منظمة العفو الدولية (الشعبة الفرنسية) دقَّت فيه ناقوس الخطر، وَصَفَتْ وضعية المرأة الفرنسية بأنَّها مثيرة للشفقة؛ مما يستدعي تدخلَ الحكومة فورًا لحماية المرأة من الاعتداء عليها.

كما نَشرتْ وزارةُ العدل الفَرنسية تقريرًا كشف أنَّ ثمَّة مليون ونصف مليون امرأة فَرنسية يتعرضن للعنف الأُسري من طرف أزواجهنَّ كلَّ عام؛ أي: بمعدَّل امرأة من كل عشر نساء، يتراوح نوعُ الاعتداء بين مشاعر الكراهية، إلى الشتائم والعنف اللفظي،

الذي يصحبه الضَّرْب المبرِّح والقَتْل، وفي استفتاء أُجري في المنطقة الباريسية على ٧٠٠٠ امرأة، ذكر ١٠٪ منهنَّ أنهنَّ كُنَّ ضحيةَ الاعتداء على أيدي أزواجهنَّ خلال الـ ١٢ شهرًا الأخيرة.

قامت إحدى المحاميات الناشطات في حقوق المرأة قالت: إنَّ ٥١٪ من الفرنسيات يتعرضنَ لعنف الرجل داخلَ وخارج الأسرة، وإنَّ البيوت الفرنسية لم تعُدْ ملجأ آمنًا، بل مكانًا للرعب.

وأذكركم أن الحكومة الفَرنسيَّة قد دعت إلى معاقبة كلِّ متورِّط في الاعتداء على النِّساء، وأطلقتْ حملة واسعة، شعارها: «لا للعنف ضد النساء»، وأثارتِ الحملة نقاشًا حادًّا في وسائل الإعلام الفرنسية، كشفتْ خلالها مصادرُ إعلامية مطَّلعة: أنَّ السبب الأول لوفيات النساء البالغ أعمارهنَّ ما بين ٢٠ إلى ٥٠ سنة في فرنسا: هو القتْل على يدِ شركائهنَّ (زوج شرعي أو غير شرعي)، كما كتبتْ إحدى الصحفيات الشهيرات مقالاً لاذعًا، انتقدتِ الفَرنسيِّين بقولها: «إذا كنتم تزعمون أنَّ المسلمين يظلمون المرأة المسلِمة بسبب إجبارها على تغطية جِسْمها بالحجاب، فأنتم في المقابل تُغطُّون جسمَها بالكدمات!!».

قالت أخرى: سجَّلت تقاريرُ حكومية في فرنسا وقوعَ ٤٨ ألف

اغتصاب سنويًّا، وأن ٧٢٪ من النِّساء اللاتي تعرضنَ للاغتصاب قبل بلوغ سِنِّ ١٥، لم يُبلغنَ السلطات، وجاء في إحدى الإحصائيات: أنَّ ٦٦٪ من الفرنسيات يتعرضنَ للتحرُّش الجنسي في أماكن التعليم والعمل، وعُدَّ التحرُّش الجنسي عنفًا ضد المرأة؛ لأنَّه غالبًا ما يُمارَس تحت التهديد اللفظي بالطَّرْد من العمل، أو الحِرْمان من أيِّ حقوق أو امتيازات.

هذا؛ ومِن المفارقات العجيبة: أنَّ أحدَ كِبار العلمانيِّين الفَرنسيِّين المتهجِّمين على الإسلام، الذي ينعته بـ«الأصولية الإسلامية»، والذي أشار إلى أنَّ الشريعة الإسلامية عبارةٌ عن تشريع يسُنُّ العنف، وأبدى حِرصَه على ضرورة حماية المرأة مِن كلِّ أنواع العنف، هذا الدَّعيّ المُنظِّر، رفعتْ زوجتُه ضدَّه قضيتين أمامَ المحاكم الفرنسية، بتُهمة الاعتداء عليها بالضَّرْب!!

اضطر القائمون على الندوة والحوار إلى طلب إنهاء الحوار من السيدة عصمت بسرعة؛ حتى يوقفوا هذا السيل المنهمر والبركان الثائر الذي يدمِّر صورة فرنسا والغرب، ويحطم نفوس وقلوب القادمين من العالم الثالث لينصروا اضطهاد المرأة في بلاد الحرية.

* * *

منذ انتهاء رحلتها ومن معها حتى ركوب الطائرة، عصمت ذهنها شارد، وأمواج الفكر العاتية تكاد تدمّر رأسها.

تجلس بجوارها في الطائرة بوسي، صديقتها منذ دخولها الكلية، وكانت نشيطة معها في الدفاع عن حقوق المرأة، وكانت توصف دائمًا بأنها متحررة، وجميلة، وأنيقة في ملابسها ومكياجها وتسريحة شعرها.

بوسي: ما لك يا عصمت؟

عصمت: لا شيء.. مرهقة فقط.

بوسي: ألم تفكّري في هؤلاء المسلمات حديثًا، اللاتي يواجهن العالم كله بثبات وصبر لم أر مثله من قبل.. إنهن يذكرنني بالصحابيات اللاتي كن يعذَّبن ويضطهدن مع النبي ﷺ لدرجة أني شعرت بالخجل عندما تحدثت معهن؛ كيف أسلم هؤلاء ورسخ الإسلام في قلوبهن بهذه الطريقة، ونحن نشأنا مسلمات ولا نعرف عن ديننا شيئًا، ولم نفكر أن نضحي يومًا من أجل إسلامنا؟!

عصمت تنظر لها باستغراب: أراك تأثّرت بهن.

بوسي: لو كان قلبي صخرًا لتفتت أمام هؤلاء الفتيات، وهل لو رأى الإنسان الحق يصرّ على ما هو عليه أم يتبعه؟

عصمت: هل تفكرين أنت الأخرى في لبس النقاب يا بوسي؟

بوسي: أنا الآن سألبس الحجاب، وربما ألبس النقاب في يوم من الأيام، لا أحد يدري الغيب.

عصمت: هكذا؛ لمجرد لقاء مع فتيات أسلمن حديثًا، وعندهن حماسة لدينهن الجديد.

بوسي: لا يا عصمت، أنا منذ فترة أفكر فيما نحن عليه، وما الذي أفادنا وأفاد مجتمعنا وديننا، حاورت الكثيرات من زميلاتنا، تخيلي معظم زميلاتنا الآن محجبات، وكثيرات منهن لبسن النقاب.. كنت منذ شهر أسير بسيارتي في الإسكندرية، وعند إشارة المرور فوجئت بسيدة منتقبة تناديني من سيارتها، فعجبت: من هذه؟ تخيّلي من؟

عصمت: من هي؟

بوسي: إنها نوران.

عصمت: معقول! نوران لبست النقاب!

بوسي: ما رأيك؟

عصمت: أنا لا أعرف ماذا حدث لهن.. نوران رمز التحرر، التي كانت بطلة السباحة في الجامعة، ولا تستحي أن تسبح بالمايوه

أمام الطلبة!

بوسي: أخذتني معها إلى النادي، وعرفتني على حوالي عشر فتيات منتقبات، وبينهن حب وصداقة لا أستطيع وصفها.

عصمت: أعرف أن النقاب ينتشر حتى في الوسط المخملي.

بوسي: على فكرة.. دخلت في حوار مع فتاة فرنسية أسلمت حديثًا على جانب المؤتمر.. أرتني وجهها.. رائعة الجمال، عندها حماسة لا توصف، وتحب الإسلام وتتمنى أن تضحي من أجله.. سألتني: هل أنت مسلمة؟

قلت لها: نعم.

قالت: وماذا يدل على إسلامك؟ وهل هذه هيئة المسلمة التي أمرك الله بها؟ هل ضعفت أوامر الله في قلبك إلى هذه الدرجة؛ حتى أتيت لنصرة الكافرين على أهل الإيمان؟!

قلت لها: إننا أتينا لنتحاور، ونحاول التوسط بينكن وبين مجتمعاتكن؛ حتى لا يحدث تصادم، فهم يقولون: إننا لا نقبل إهانة المرأة، والنقاب إهانة لها.

ضحكت ثم قالت: هؤلاء أفّاكون كذّابون؛ فإذا كان النِّقاب يُنافِي كرامةَ المرأة، فماذا عن امتِهان المرأة الأوربيَّة للدَّعارة؟ لماذا لم

تُجرِّم أوربا بيع المرأة جسدَها لِمَنْ يدفع لها المقابل؟

فأي إهانة للمرأة يتكلَّمون عنها وهم يُبيحون لها التكسُّب بجسدها، فإذا أرادَتْ أنْ تستره، مُنِعَتْ؛ لأنها تُهين نفسها؟! أي سفاهة يتحدثون بها؟ هل يحسبون أننا بلا عقل؟!

إنهم يريدوننا أن نُعرَض بجانب السِّلَع للبيع، أو لتَروِيج السِّلَع، إن أي فتاة تعمل في أي مجال لا بد أن تبيع جسدها لصاحب العمل أو المديرين الأعلى منها، وإلا طوردت وضيِّق عليها في عملها ورزقها، فالمرأة عندهم هي الجميلة الفاتنة، أما القبيحة والمريضة وكبيرة السن فلتذهب إلى الجحيم، أو إلى دور المسنين؛ فدورها انتهى بنهاية مفاتنها، هل هذه هي الحريَّة التي يتغنَّى به الغرب ليل نهار؟!

كيف تُمنَع المرأة من النِّقاب وهو اختيارها، وفي منعها تَعدٍّ على حريَّتها؟!

فإذا أرادَت المرأة الغربيَّة فعل أيِّ شيءٍ، فلها فعلُه؛ لأنَّها حُرَّة، حتى لو مشت عارية في الشارع، أو فعلت فعلاً فاضحًا تستحي البهائم أن تفعله أمام الناس، وإذا أرادَت المرأة المُسلِمة ارتِداء النِّقاب، مُنِعت منه؛ لأنها ليست حرَّة!

عصمت: عندهن حماسة شديدة تفوق المنتقبات عندنا.

بوسي: عصمت، أنصحك نصيحة، وربما كان هذا آخر كلام بيننا، لا بد أن يفكر الإنسان ولا يسير هكذا، ولقد لقيت بعض أعلام الدفاع عن حرية المرأة، ووجدتهن غيّرن رأيهن بعدما رأوا من آثار تدميرية على مجتمعاتهن، فاعترفت إحداهن لي أنه لو أخذ العالم بالقيم الغربية سينتهي الجنس البشري؛ لما سيحدث من قلة المواليد، وجلُّهم غير شرعيين، حتى ينتهي العالم.

أعرف أن موقفك صعب، وليس لديك حرية مثلنا، ولكن فكّري في كلام هؤلاء المسلمات، وهذا مقال لكاتبة اسمها هيلسيان ستانسيري، أدعك تقرئينه حتى نصل.

عصمت: هذا أفضل، دعيني أتسلى حتى نصل.. ما عنوانه؟

بوسي: «امنعوا الاختلاط، وقيِّدوا حُرِّية المرأة».

عصمت: هاتيه.. وسبحت بفكرها مع كلمات المقال: «إن المجتمع العرَبِيَّ سليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسَّك بتقاليده التي تقيِّد الفتاة والشابَّ في حدود المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكيِّ، فعندكم تقاليد موروثة تحتِّم تقيُّد المرأة، وتحتِّم احترام الأب والأمِّ، وتحتِّم أكثر من ذلك عدم الإباحيَّة

الغَرْبية التي تهدِّد اليوم المجتمعَ والأُسْرة في أوربا وأمريكا؛ ولذلك فإنَّ القُيود التي يفرضها المجتمع العرَبِيُّ على الفتاة الصَّغيرة، وأقصد ما تحت سنِّ العشرين، هذه القيود صالحة ونافعة؛ لهذا أنصح بأن تتمسَّكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيِّدوا حرية الفتاة، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب، فهذا خير لكم من إباحيَّةِ وانطلاق ومُجون أوربا وأمريكا.

امنعوا الاختلاط قبل سنِّ العشرين، فقد عانَيْنا منه في أمريكا الكثير، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعًا معقدًا مليئًا بكل صُوَر الإباحيَّة والخلاعة، وإنَّ ضحايا الاختلاط والحُرِّية قبل سن العشرين يملَؤُون السُّجون والأرصفة، والبارات والبيوت السرِّية، إنَّ الحُرِّية التي أعطَيناها لفتياتنا وأبنائنا الصِّغار قد جعلَت منهم عصاباتِ أحداث، وعصاباتٍ للمخدِّرات والرقيق.

إن الاختلاط والإباحيَّة والحُرِّية في المجتمع الأوربي والأمريكي قد هدَّد الأُسَر، وزلزل القِيَم والأخلاق، فالفتاة الصغيرة تحت سنِّ العشرين في المجتمع الحديث تُخالط الشُّبان وترقص (تشاشا) وتشرب الخمر والسجاير، وتتعاطى المخدِّرات باسْمِ المدَنِيَّة والحريَّة والإباحيَّة، والعجيب في أوربا وأمريكا أنَّ الفتاة الصغيرة تحت

العشرين تلعب وتلهو، وتُعاشر مَن تشاء تحت سَمْع عائلتها وبصَرِها، بل وتتحدَّى والِدَيْها ومُدَرِّسيها والمُشْرِفين عليها، تتحدَّاهم باسْم الحرِّية والاختلاط، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق، تتزوَّج في دقائق، وتُطلّق بعد ساعات، ولا يكلِّفها ذلك أكثر من إمضاءٍ وعشرين سنتًا وعريس ليلة أو بضع ليال، وبعدها الطَّلاق، وربما الزواج فالطلاق مرة أخرى».

* * *

بمجرد وصول عصمت، وجدت في انتظارها برنامجًا معدًّا، والدعاية الإعلامية له ملأت أرجاء الدنيا؛ حتى يُوارى الفشل الذي حدث أمام الغرب، بعدم إقناع المسلمات في أوربا بخلع النقاب، فكان لا بد من إظهار تقدُّم في قضية أخرى، وهي ختان الإناث.

القرية كأنها ثكنة عسكرية.. تغيَّرت معالمها.. أصبح كل شيء جديدًا، حتى البيوتُ تمَّ طلاؤها حتى تداري آثار الزمن على حوائطها.

تصل السيدة عصمت مع وفدها المرافق، من النائبات

وجمعيات حقوق المرأة، وبعض الوزراء، وشيخ الأزهر والمفتي، والمحافظ وكبار الموظفين.. واللافتات تملأ الشوارع مرحِّبة، معلنة أن القرية على العهد، وستكون أول قرية خالية من الختان، ولن يحدث فيها أبدًا ذلك الفعل الشنيع.. ختان الإناث.

يبدأ الحفل الذي تتابعه وكالات الأنباء المحلية والعالمية.. يبدأ الشيخ سلامة ببيان الحكم الشرعي، وأنه حرام حرام حرام، ومن يقل غير ذلك فهو سمكريّ لا علاقة له بالعلم الشرعي.

ثم المفتي يتشدد أكثر – مع أنه قبل منصب الإفتاء كان يقول باستحبابه – ويقول: إنه كبيرة من الكبائر، ومن يفعله ففي إيمانه شك، وكان وزير الأوقاف سيتكلم، فأشارت إليه أن كفى؛ خوفًا من أن يكفِّر من يفعل الختان، وتصبح فضيحة مدوّية.

ثم يتحدث عمدة القرية عن اقتناع أهل القرية بأن عادة الختان سيئة، وكلهم قد حلفوا بالطلاق أنهم لن يقتربوا من هذه العادة ثانية، وهكذا دواليك تكلَّم المتكلمون من أهل القرية، ثم بدأ المهم وهو توزيع الجوائز والهدايا، وكانت أهم شخصية الحاجة نعمات، التي ختنت كل نساء القرية، وأعلنت في الحفل أنها اعتزلت هذه المهنة؛ فهي لا تريد أن تأكل من حرام، فيصفّق لها الجميع.

وينتهي الحفل بإعلان السيدة عصمت أنها قريبًا ستعلن أن الجمهورية أول دولة خالية من الختان في العالم كله، ويرتفع صوت التصفيق لمدة ربع ساعة لم ينقطع فيها.

تذهب السيدة عصمت بعد انتهاء الحفل وبعض المرافقات لها إلى الاستراحة، التي أعدَّت خصِّيصًا لها.. تطلب كيداهم الحديث معها على انفراد.

عصمت: ما لك يا كيداهم؟ ما وراءك؟

كيداهم: أتكلم بصراحة.

عصمت: طبعًا؛ إن ما يعجبني فيك أنك صريحة ولا تنافقينني، وقد أتتني وشايات كثيرة عنك بسبب زواج ابن أختك من حنان ونيفين، ولم أعرها اهتمامًا؛ لأني أعلم أنك واضحة، وتفعلين ما تعتقدين.

كيداهم: أنا غير مقتنعة بموضوع القرية هذه.

عصمت: لماذا؟

كيداهم: ومن أدرانا أنهم صادقون؟ هل كشفنا على بنات القرية؟

عصمت: ماذا تقصدين؟ الموضوع فيه خداع؟

كيداهم: بالتأكيد.

عصمت: وما دليلك؟

كيداهم: دعيني لغدٍ وأجِّلي السفر، وسآتيك بكل شيء.

عصمت: كما تريدين.

تخرج كيداهم في ملابسها البلدي.. تسأل عن منزل الحاجة نعمات حتى تصل إليه.. المنزل من أفخم منازل القرية؛ مما يدل على ثراء صاحبته.

تنادي: يا حاجة نعمات.

نعمات: تفضَّلي.

تدخل.

كيداهم: سمعت أنك ماهرة في الختان، وأتيت إليك لتختني بنتي.

نعمات: أخفضي صوتك.

كيداهم: نحن لا نفعل شيئًا خطأ؛ لماذا تخافين؟

نعمات: اصبري حتى يغوروا من هنا ويمشوا، فلو عرفوا سيأخذون مني الجائزة.

كيداهم: ومن أين سيعرفون؟

نعمات: لكن أنت لست من أهل القرية.

كيداهم: نعم أنا من مصر وأتيت مع السيدة عصمت.

نعمات: إذن أنت تريدين أن تلقيني في ستين داهية.

كيداهم: لماذا؟ أنت فاهمة كل حاجة.

نعمات: ماذا تقصدين؟

كيداهم: نحن نعمل هذه الحفلات حتى يأتينا دعم من الغرب؛ يعني أموالاً.. كما أنك أعلنت ترك المهنة من أجل الجائزة؛ يعني كلنا يفيد ويستفيد.

نعمات: يا أختي لا جائزة ولا حاجة.. العمدة وكبار البلد أتوا إليّ، وكانوا سيقبّلون رجلي حتى أحفظ الكلمتين اللتين قلتهما في الحفل.

كيداهم: أنا فاهمة الموضوع.. وأعلم أنك ختنت فتاة قبل أن نأتي.

نعمات: كانوا ثلاثة.

كيداهم: ثلاثة مرة واحدة.

نعمات: قلت: أنتهي منهن حتى آخذ إجازة إلى أن يمشي الوفد.

كيداهم: والنسوة اللاتي يتزعمن الموضوع ودعونا.

نعمات: تقصدين الأستاذة هناء.. بنتها ختنتها الشهر الماضي.

كيداهم: يمكن تابت.. تضحك.

نعمات: وابن أختها من يومين.

كيداهم: لا.. الذكور قصة ثانية.. هؤلاء عندهن لو ذبحت ذكور البلد لا يهم، ولكن ختان بنت واحدة جريمة عندهن.. يحببن البنات يعني.

نعمات: وواحدة من الثلاثة أختها الصغيرة.

كيداهم: شكرًا يا حبيبتي.. خذي عشرين جنيهًا، وعندما أجهّز البنت سآتيك.

نعمات: تشرّفين يا حبيبتي.

سجّلت كيداهم الحوار كله، وأسمعته للسيدة عصمت.. بدا عليها أثر الصدمة، وأُحرجت أمام كيداهم.

عصمت: يا لهؤلاء المنافقين! يا إلهي! كلهم منافقون! كيف سأستمر في هذا الوسط؟!

كيداهم: أتكلم بصراحة.. كلهم منافقون لأنهم يعلمون أن نفاقهم يعجبك، فهناك أناس كثيرون تكون صداقتهم لله، ولا

يعجزك البحث عنهم.

عصمت: كيداهم، أنت الوحيدة التي أحس منك بالصدق؟ فكوني كذلك دائمًا.. أما هؤلاء المنافقون فسيكون لي معهم شأن آخر.

اذهبي إلى كل من أخذ جائزة أو هدية وخذيها منه حالاً.. لحظة: لو اعترض أحد منهم، ماذا ستفعلين؟

كيداهم: لا تقلقي، سأقول له أو لها: مطلوب الكشف عن كل البنات، ولو كانت واحدة مختونة، فأنت ضلالي.

ولكن لي سؤال: لماذا التفريق بين ختان الولد والبنت؟

عصمت: هذا موضوع يحتاج لشرح.. وليس وقته الآن.

كيداهم: وهل يعجبك كلام الشيخ سلامة والمفتي ووزير الأوقاف؟

عصمت: أحيانًا نعم.. وأحيانًا أملُّ منهم.

كيداهم: ولكن قلبك يعلم الحق من الباطل، وأريد أن أنصحك: دعك ممن حولك، فكلهم منافقون، واعملي من أجل البلد.. البنات حالتهم أصبحت صعبة؛ عنوسة وشقاء وتعب، مطلوب من المرأة أن تكون رجلاً يعمل ويشقى، وتساعد في

مصاريف البيت، وأن تراعي زوجها وتتزين له حتى لاينظر لغيرها وللممثِّلات والمغنيات اللائي يخربن البيوت، وأن تربِّي أولادها وتعلّمهم.. فهل ما نفعله في صالح البنات؟ أم أصبحنا نزيد الأعباء عليهن؟ فكّري يا بنتي.. ربنا سيسألنا عن هؤلاء البنات.

* * *

لم تنم عصمت طوال الليل.. أرق رهيب، وتفكير في حياتها.. ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

ما فائدة ما أفعله؟ هل أنا على صواب؟ يا إلهي! وهل كل من حولي ينافقونني؟ وهل أحب نفاقهم؟

أخذت منومًا حتى لا ينفجر رأسها؛ لكنه لم يؤثر.

أحس بها عماد، ما لك يا عصمت؟

عصمت: لا شيء.. مرهقة من كثرة العمل.

عماد: الإرهاق يجعلك تنامين.. هذا أرق.

عصمت: أفكّر في تطوير العاملات في مجال المرأة.

عماد: لا ترهقي نفسك؛ فالدنيا لن تطير.. يذهب في النوم ويتركها غريقة في لجة عميقة من التفكير.

تظل وحدها والتفكير يكاد يقتلها.. حتى يغلبها النوم وقت السَّحَر.

تستيقظ مفزوعة على ذلك الحلم – أو الكابوس – الذي يأتيها منذ سنوات.. ذلك الرجل الذي يأتيها في منامها ويقول: أنا أبوك يا جاحدة، ويتركها ويسير.

نامت عصمت بعد استيقاظها مفزوعة وقتًا طويلاً؛ بسبب الإرهاق والتفكير والمنوّم.

استيقظت بعد الظهر، وعاد السيل الجارف من الأفكار، وعلمت أنه لن ينجيها مما هي فيه الآن إلا تغيير الجو.

خطر على بالها كيداهم.. اتصلت بها على الهاتف.

عصمت: يا معلمة كيداهم.. سآتي لزيارتك الآن؛ ولكن بشرط أن لا يعرف أحد مهما كان.

كيداهم بشعور بين الفرحة والاستغراب: هذا يوم السعد يا سيدة الكل.

تخرج من القصر في سيارة ملاكي.. ليس معها إلا السائق.. تنزل وتأمر السائق أن لا ينتظرها.

كيداهم في انتظارها أسفل العمارة الفاخرة، تستقبلها بجفاوة،

وتدخلها إلى غرفة الضيوف.

كيداهم: أنا سعيدة الحظ، وفخور أنك خصصتني بزيارة السعد.

عصمت: شكرًا على استقبالك اللطيف.

كيداهم: خير.. هل هناك شيء تريدين أن أنجزه لك؟

عصمت: لا شيء.. فقط أريد تغيير جوٍّ، وأرى الناس على حقيقتهم.

كيداهم: ستتعبين يا بنتي.. أنت تعوَّدت أن يريك من حولك ما تحبين فقط.

عصمت: لقد قررت أن أرى الحقيقة كما هي، وأن أقابل الناس وخاصة المرأة، وأرى إلامَ وصلت المرأة؟ وما نتيجة التغييرات التي أحدثناها؟ أريد رؤية أناس غير من حولي.

كيداهم: إذن؛ أنادي على بنتي؛ لتتحدثي معها، وهي ساخطة علينا جدًّا، وترى أن ما نفعله حرب على الإسلام، وعلى المرأة، وتدمير لحقوقها وللمجتمع.

عصمت: ما اسمها؟

كيداهم: شيماء.

عصمت: ما تعليمها؟

كيداهم: في سادسة طب.

عصمت: ما شاء الله، أين هي؟

كيداهم: دقيقة.. ترفع صوتها: شيماء.

شيماء: ماذا تريدين؟ لم أنتهِ من غسل المواعين.

كيداهم: اتركيها وتعالي.

شيماء: تعطّلينني ثم تقولين: تأخرتِ!!

كيداهم: عندي لك مفاجأة.

تأتي شيماء: أحب مفاجآتك يا جميل.

تدخل شيماء.. تفاجأ بعصمت: السلام عليكم.

عصمت: وعليكم السلام، كيف حالك يا شيماء؟

شيماء – ببرود -: الحمد لله.

عصمت: أراك تعتبرينني ضيفة ثقيلة عليكم.

شيماء: شرفّت يا عصمت هانم.

عصمت: أعرف أنك لا يعجبك ما نقوم به من أجل المرأة.

شيماء: ومن أدراك أنه يعجب المرأة نفسها؟!

عصمت: إلى هذه الدرجة؟

شيماء: لا طبعًا.. إلا المستفيدين والمستفيدات.

عصمت: هذا رأيك، ولا بد من احترام اختلاف الآراء.

شيماء: يا إلهي! آخر شيء أتصوّره أن أسمعك تتحدثين عن اختلاف الآراء.. طبعًا في مناقشة، وأنتن لا تتناقشن إلا مع من هو تابع، لا صاحب رأي وفكر.. وإلا فالكلام عندكن ليس عليه حساب.

عصمت: واضح أنك.....

شيماء: أني ماذا؟ ماذا فعلتن للمرأة؟ أقول لك: هدم المجتمع، طلاق، عنوسة، فواحش........إلخ.. حولتموها إلى كتلة من شقاء، صارت رجلاً يشقى، وامرأة تتعب وترعى بيتها.

عصمت: هل يمكن تأجيل الحوار الآن؛ لأني متعبة؟

شيماء: طبعًا، أنت ضيفتنا، وما تريدينه ننفّذه.

عصمت: أريد تغيير جوٍّ اليوم.

شيماء: هناك حفل خطوبة زميلة لي، هل تذهبين معي؟

عصمت: معك في الكلية؟

شيماء: نعم وبنفس الفرقة.

عصمت: أتمنى أن أذهب معك؛ فقد سئمت الحفلات

الرسمية.. ولكن لا أعرف رد الفعل على حضوري.

شيماء: بصراحة.. زميلاتي مثل كل البنات، في قلوبهن نار منك ومن مجموعتك؛ ولكن هل تحبين المغامرة؟ اعتبريها حفلة تنكُّرية.. البسي نقابًا؛ فالعروس منتقبة وكذلك معظم المدعوات.

عصمت: ولكن كيف تصاحبين منتقبة وأنت تظهرين شعرك.

شيماء تضحك: هل تحسبينني أخرج هكذا؟! هذه ملابس البيت.

عصمت: وماذا تلبسين عند الخروج؟

شيماء: أتمنى أن أنتقب؛ ولكن أمي مع أني أقنعتها بلبسي للنقاب، ولكنها تخاف أن يعاديها عضوات مجالس المرأة ويحاربوها، وتقول: كفى ما حدث بسبب سعيد ابن أختي.

عصمت: ولكن مادمت مقتنعة به، لماذا لا تصرّين على لبسه؟

شيماء: وكأنك لا تتهمين من تلبسه بالتخلف؛ معنى لبس النقاب: إعلان الحرب؛ بمعنى: اضطهاد في الامتحانات والجامعة من الحرس، مع ما تلاقيه المنتقبات من تقدير واحترام بين الطلبة والدكاترة.. علينا أن نؤجل المناقشة لوقت آخر حتى لا نتأخر.

كيداهم: هل ستفعلين ما أشارت به عليك هذه المجنونة؟

عصمت: نعم؛ فأنا أحب المغامرة.

كانت عصمت تتمنى أن تلبس النقاب – من باب حب الفضول - لترى كيف تنظر المنتقبة للناس، وكيف تسير في الشارع، وما السر في محاربتهن من أجله؟ وها هي الفرصة أتتها.

كيداهم: ومن أين ستأتين بالنقاب يا فالحة؟

شيماء: أقول لك سرًّا: عندي نقاب ألبسه بعد خروجي من البيت؛ حتى لا تعلم أمي، وتحدث مشكلة.

كيداهم: يعني تخدعينني.. حسابك ليس الآن.

شيماء: ما لك يا كيداهم؟ هل أنا أخدعك وأخلع ملابسي، أو أمشي مع أحد؟ دماغك.. تضحك.

عصمت تعجب من طريقة شيماء في التعامل مع أمها وكأنهما صديقتان مع اختلاف الثقافة بينهما.

تحضر شيماء لعصمت إسدالاً ونقابًا.. خذي البسي.. أشعر أن الموضوع سيبدأ بمغامرة وتهريج، وينتهي بجدّ.

عصمت: ماذا تقصدين؟

شيماء: لا تأخذي في بالك.

تلبسه عصمت بمساعدة شيماء فوق ملابسها.

شيماء: يا ألله! إنه تحفة عليك.. ولكن هناك شيء غريب.

تخيَّلي أنك تُشبهين أعزَّ صديقة لي.. اسمها رحمة، وهي رحمة لكل من حولها، وكلنا نحبها.. كثير من زميلاتنا لبسن النقاب تأثرًا بها، ومع ذلك هي مجتهدة جدًّا.. كل سنة امتياز، ولولا الكوسة لكانت الأولى على الدفعة بلا منازع.. بالتأكيد ستكون موجودة اليوم.

عصمت: هل تشبهني كثيرًا؟

شيماء: كأنها أختك.. لها معي صورة.

تنظر عصمت في الصورة وفي المرآة: غريبة؛ كأنها صورتي.

شيماء: ألم أقل لك؟ يخلق من الشبه أربعين.

عصمت: سنلتقي وأتعرّف عليها.

خرجتا من المنزل.. تكاد عصمت تقع على الأرض من صعوبة المشي؛ فالإسدال طويل وفضفاض، وهي لم تعتد الملابس الفضفاضة، والنقاب يكاد يخنقها.

تمشي شيماء بجوارها، وتكتم الضحك بصعوبة، وتداعبها.

عصمت: يا لها من فكرة مجنونة! سينكشف أمرنا.

شيماء: لا تخافي.. كل من تلبس النقاب لأول مرة يحدث لها

هذا.. ستعتادين عليه. عصمت: لن ألبسه ثانية.

شيماء: لكن أنت تلبسين الآن ملابس بدعة – تضحك – على رأي مشايخك، وملابسك التي تظهر شعرك ونحرك عندهم سنّة!

عصمت: وهل هذا وقت تهريج؟!

شيماء: انتظري هنا.. سأدخل هذا المحل لأضع النقاب على وجهي.

عصمت: أنت مجنونة.

شيماء:

وَيَفُوزُ بِاللَّذَّاتِ كُلُّ مُغَامِرٍ وَيَبُوءُ بِالْحَسَرَاتِ كُلُّ جَبَانِ

وصلتا لمنزل العروس.. الأنوار أمام المنزل، والرجال جالسون، وبعضهم واقف يستقبل المدعوين، والـ«دي جي» صوته مرتفع بالأغاني.. لاحظت عصمت أن هذا الغناء لم تسمعه من قبل.. وهناك شيء غريب: لا يصاحبه موسيقا.

المنزل من أربعة طوابق.. يدل على أن حالهم متوسط.. صعدتا إلى الدور الثاني.. كلهن نساء فقط.. نظرت عصمت إلى العروس ومكياجها وفستانها، فبدت وكأنها القمر.

نظرت إلى الحضور.. معظمهن منتقبات أو بخمار، وبعضهن

بطرحة صغيرة، وقليلات متبرجات.. وكلهن وجوههن سافرة، ومعظمهن واضعات مكياج.

عصمت تلاحظ كل شيء، وتدور أسئلة كثيرة في رأسها.

تسلِّمان على العروس، وتعرّف العروس بعصمت: هذه أم صهيب، فترحب بها، وتداعب شيماء العروس وتضحك معها.. ثم تسلّم شيماء على زميلاتها، وواضح أنها لها شعبية ومحبوبة بين زميلاتها، فيزيد إعجاب عصمت بها.

تسمع عصمت «أم صهيب»، فيهجم عليها حنين الأمومة.. ذلك الشعور الذي تقاومه دائمًا؛ ولا تعرف هل ستصبح أمًّا أو ستبقى هكذا؟ تقاومه حتى لا تتهمها أمها بالرجعية والتخلف، ولكن هيهات! فكاد قلبها يبكي عندما سمعت «أم...».

عصمت تسرّ لشيماء: هيّا نجلس في مكان؛ كفانا وقوفًا.

شيماء: طبعًا الجو غريب عليك.

تجلسان في ركن من الغرفة.

عصمت: ماذا تقصدين بأم صهيب؟

شيماء: بدل أن أكذب وأسميك باسم كذب، كنَّيتك.

عصمت: نعم.

شيماء: يعني سميتك بأم كذا، بإذن الله تنجبين قريبا، وتسمينه صهيبًا.

عصمت تنظر لها باستغراب: صهيب! أسماؤكم غريبة.

شيماء: على فكرة صهيب اسم صحابي جليل.. تنادي: صهيب.

يأتي طفل صغير في حوالي الثالثة من عمره، يسلّم على شيماء.

شيماء: هذا صهيب أخو العروس الصغير، ما رأيك؟

عصمت: ما شاء الله، جميل جدًّا.. تقبّله، فيهجم عليها ثانية ذلك الحنين، متى تقبّل ولدها؟!

تلتفت لشيماء: ولكن مازال أبواها ينجبان!

شيماء: قولي: ما شاء الله، هل هناك شيء أفضل من الأولاد؟

تغيّر عصمت الحديث حتى تخرج من ذلك الهمّ: وهل العروس تخرج هكذا؟

شيماء: تخيّلي لو خرجت كذلك، ماذا سيحدث؟

عصمت: بصراحة.. إنها فاتنة.

شيماء: عندنا في الإسلام بإجماع العلماء: المرأة الفاتنة يجب

عليها لبس النقاب.. طبعًا علماء الإسلام، لا المنافقون الذين يُفتون لك على هواك.

عصمت: هؤلاء علماء أيضًا.

شيماء: عيني في عينك، والله أنت تعلمين أنهم ينافقونك.

عصمت: ولماذا تقولين: عندنا في الإسلام؟ ألستُ مسلمة أيضًا؟

شيماء: والله احترت واحتار دليلي.. لا أعلم أي إسلام إسلامكم.

عصمت: أنا مسلمة جدًّا.

شيماء: وما دليل إسلامك؟ هل تصلّين؟

عصمت: لا، ولكن أقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

شيماء: قال النبي ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

عصمت: ماذا تقصدين؟ هل أنا غير مسلمة؟!

شيماء: هل سأفتي؟! أنا أقول لك ما أعلمه، وأنت أدرى بنفسك، وسلي مشايخك.

عصمت: دعك من هذا الحديث الآن وقولي لي: هل

العروس منتقبة؟

شيماء: نعم، وما رأيك في هؤلاء المنتقبات؟ طبعًا كنت تحسبينهن يجلسن بالنقاب دائمًا؟

عصمت: نعم.. ولكن فهمت الآن أنهن يلبسنه في الشارع فقط، أو في وجود الرجال.

شيماء: اسم الله عليك.. وما رأيك في هذه الأفراح؟

عصمت: إنها تختلف كليًّا عن الأفراح التي حضرتها في حياتي.

شيماء: طبعًا.. أفراحكم رجال مع نساء، ورقص وخمر ومجون.

عصمت: مجون، ما لي أرى آراءك متطرفة؟

شيماء: الصراحة تطرّف.. وهل هذا أدب الحوار؟

عصمت: تبتسم.. على فكرة.. أنت مثل والدتك، ولكن على شياكة.

شيماء: أنا وأمي دائمًا نتحاور، وأعرف أنها تعلم أنني على حق في قرارة نفسها؛ ولكن الدنيا لها دور معها.. أما أنا فأتمنى أن أحيا لديني، وأن يكون زوجي رجلاً تقيًّا يساعدني على تطبيق شرائع ديني وما أعتقده.. ادعي لي أن يرزقني الله بالزوج الصالح.

عصمت: ربنا يعطيك ما تتمنين.. لي سؤال: لماذا الأغاني ليس فيها موسيقا؟

شيماء: ما رأيك فيها؟

عصمت: رائعة بكلماتها وأصوات المغنين.

شيماء: أليست أحسن من العنب العنب، وأحبك يا حمار.

عصمت: ولكن هناك أغاني رومانسية.

شيماء: اسمعي هذا النشيد:

هَـلْ تَبَـدَّى الْقَمَـرْ   أَمْ عَرِيـسنا ظَهَـرْ

رَبُّنَـــا يَحفظـــهْ   مِن عيـون البـشر

عصمت: كلماته جميلة جدًّا، وصوته رائع؛ لكن لو فيه موسيقا.

شيماء: كان سيصير سيئًا؛ لأن الموسيقا حرام.. وطبعًا هذه آراء متطرفة في رأيك، ولو شئت نتناقش في هذه الأمور على قاعدة: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي خصمي خطأ يحتمل الصواب.. أو قبول الآخر، وكل الكلام الكبير الذي لا تملُّون التشدق به.

ممكن نسمع صوتك يا شيماء.. تناديها العروس.

سأنشد؛ ولكن تحمّلي.

عصمت: وتغنين أيضًا!!

العروس: انشدي ولا يهمك.

تنشد بصوت جميل:

هـل تبـدى القمـر   أم عريـسنا ظهـر

ربنـــا يحفظـــه   مـن جنـون البقـر

يعلو صوت الضحك بين زميلاتها.

شيماء: أُكمل؟

العروس: كفى.. ستفضحيننا.

عصمت لا تتمالك نفسها وتستمر في الضحك: أنا لم أضحك هكذا منذ زمن طويل.

اضحكي تضحك لك الحياة.

عصمت: لكن صوتك جميل فعلاً.

شيماء: ما رأيك؟ أصلح للعمل مغنية؟

عصمت: تصبحين أفضل مغنية في مصر.

شيماء: أفضل أم أسوأ؟

عصمت: أفهم ماذا تقصدين؟ أنت لك فكرك وعقيدتك،

ولك حريتك.

شيماء: يا ليتني حرة.. نحن في مجتمع يحاربنا ويحارب الفضيلة ويحارب الإسلام.

عصمت: غيّري الموضوع يا شيماء.. دعينا نضحك.. أين زميلتك شبيهتي؟

شيماء: ذكّرتِني.. غريبة.. لم تأت.

ترفع صوتها: يا بنات، أين رحمة؟

العروس: لم تأت بعد، واتصلت بها، وتليفونها مغلق.

شيماء: ربنا يجعله خيرًا.

عصمت: وهل سيراها خطيبها هكذا؟

شيماء: لن يراها إلا بعد عقد القران، يعني كتب الكتاب.. هو يراها من غير نقاب حتى يطمئن قلبهما، فإن قرَّرا الارتباط، لا يرها حتى كتب الكتاب.

تنادي شيماء إحدى زميلاتها.. تحادثها سرًّا.. تعود لعصمت حزينة.

عصمت: ما لك واجمة، ما الذي قلب حالك؟

شيماء: عم رحمة مات.

عصمت - باستغراب -: ربنا يرحمه.. ولكن: لماذا حزنت هكذا؟

شيماء: عمها هذا له قصة عجيبة، وعلى صداقتي لرحمة لم أستطع فكَّ لُغْزه.. وللأسف أمن الدولة يتعاملون بقسوة مع أسرة رحمة؛ لدرجة أنهم منعوهم من تلقّي العزاء فيه، واعتقلوا أخا رحمة، وهددوا الأسرة إن أقاموا العزاء.

عصمت: كيف هذا؟! لا أصدِّق.. ومن عمُّها هذا؟

شيماء: لولا أن الرئيس محمد نجيب مات منذ زمن بعيد، لظننت أنه هو؛ فأمن الدولة يتبعونه، مع أنه مشلول منذ شبابه.. لقد لقيت رحمة بسبب عمها هذا ما لم تلقه بسبب التزامها ونقابها، وأظن لو كان مع أحد غير رحمة وأهلها، لكانوا تركوه منذ زمن؛ ومع ذلك تحبُّه وتشفق عليه، وكانت تسهر الليالي لتخدمه؛ حتى لو وراءها امتحان.. وكان عندها استعداد للتضحية من أجله بكل ما تملك.

عصمت: وأين أولاده؟

شيماء: لا أعرف إن كان له أولاد أم لا.. ولا أعرف سببًا لما يحدث له.. فهذا خط أحمر عند رحمة.. لا نتجاوزه.

عصمت: إن ما تذكرينه لا يصدّقه عقل، هل يمكن أن نذهب لنعزّيها؟

شيماء: وأمن الدولة الذين يمنعون العزاء.

عصمت: بالتأكيد هم يمنعون الرجال فقط، وأنا سأتصرف.. هيا بنا.

* * *

نزلتا من التاكسي.. دخلتا حارة ضيقة جدًّا.

هناك رجال ينظرون نظرات غريبة لكل داخل للحارة.. يزداد عددهم كلما اقتربتا من البيت.

شيماء: هذا هو البيت.

تنظر عصمت للبيت وكأنه طلل، أو في طريقه ليصبح طللاً.. تتساءل في نفسها: كيف يعيشون في هذا البيت المتهالك؟

وصلتا للباب: يناديهما رجل ذو جثة ضخمة: ماذا تريدان؟

شيماء: أريد زميلتي رحمة.

الرجل: ليس الآن.

شيماء: وما شأنك أنت؟

الرجل: تكلمي بأدب وإلا سأقبض عليكما.

شيماء: نعم نعم.. أنت لا تعرف من أنا.. والذي خلق الخلق لو لم تبعد عن وجهي الآن، لتبيتن ليلتك في السجن.

الرجل بخوف: وحضرتك بنت من؟

شيماء: أنا بنت المعلمة كيداهم.

الرجل: آسف.. ولكن هذه أوامر علينا، وأنا عبد المأمور، ووزير الداخلية نفسه يتابعنا.. فادخلا بهدوء حتى لا أوذى.

شيماء: تطرق على الباب.. يفتح أبو رحمة.

واضح عليه أنه في قمة الحزن: تفضّلي يا بنتي.

تدخلان البيت.. حاله بالداخل أفضل قليلاً منه في الخارج، وعصمت كأنها في حلم أو في كابوس.. لا تعلم ما الذي يحدث؟

ولكن هناك شيء عجيب.. هذا الرجل الذي فتح لهما فيه شبه من الرجل الذي يأتيها في أحلامها يقول لها: أنا أبوك يا جاحدة.

شيماء: أين رحمة يا عمي؟

- في غرفة عمها.

رحمة جالسة على السرير.. في يدها أوراق تقرأ فيها، ودموعها تنهمر على خدَّيها.. قامت عندما رأتهما.. رحَّبت بهما.

عصمت تدهش للشبه الغريب بينهما.

شيماء: إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبري ولتحتسبي.

رحمة: جزاك الله خيرًا.

عصمت: البقاء لله.. تكاد تبكي وهي تقولها تأثرًا بحالها.

رحمة: كيف دخلتما؟ وكيف سمح لكما الكلاب بتعزيتنا في مصابنا؟

شيماء: لا تحزني ولا تبكي يا رحمة؛ نحن نتعلم منك الصبر.

رحمة: كيف لا أحزن ولا أبكي.. إنه أحب إنسان لي في الدنيا، كان كل شيء لي.. عمي وصديقي وصاحبي، ومع ذلك أنا صابرة؛ بل راضية، ولا أقول إلا كما قال النبي ﷺ: إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، وإنا على فراقك يا عمي لمحزونون.

تفضّلا.. اجلسا.

شيماء: ما هذه الأوراق التي تقرئينها يا رحمة؟

عصمت: إنها رسائل عمي لابنته، وكنت أقرأ آخر رسالة كتبها قبل أن يموت بساعة.. كان كلما حنَّ إليها، أنصحه أن يكتب مشاعره؛ حتى لا يصاب بمرض نفسي.

وكان أسلوبه الأدبي رائعًا، ولولا ما نلاقي من ظلم، لنشرت هذه الرسائل في كتاب، وحكيت فيه مأساة عمي؛ بل مأساتنا جميعًا.

عصمت: ممكن أرى الرسالة؛ لو لم يكن فيها أسرار.

رحمة: تفضلي.

تقرأ عصمت: «إليك يا ابنتي.... لا أعرف ماذا أضع مكان النقط؟ الجاحدة، أم الظالمة، أم القاتلة، ألم تحنِّي يومًا لرؤيتي.. أعلم أن أمك جعلتني شيطانًا في مخيّلتك؛ لكن ألا يحن الدم؟! ألم تري لكل إنسان من البشر أبًا فتمنيت أن تريني؟! يا ليتك لم تكوني ابنتي.

ولكن الله عوّضني بابنة أخي.. هي كل شيء لي في حياتي.. كم تمنيت أن تكون هي ابنتي! أشعر أن هذه آخر رسالة أكتبها لك، وأعلم أنها لو وقعت في يديك، فستلقينها في أقرب سلة للمهملات...... أتذكرين عندما كنت ألاعبك صغيرة قبل أن تقتلني أمك....».

تقرأ عصمت الرسالة وهي تكاد تبكي حتى نزلت الدموع منهمرة في آخر الرسالة.

عصمت: هل يعقل أن زوجته وبنته على هذه الدرجة من

الكفر؟! إنهما شيطانتان، وهل زوجته هذه امرأة؟!

هذه أغرب قصة أراها أو أقرأها في حياتي.

رحمة: ولكن لم أتعرف عليك يا أختاه.

عصمت أحسَّت براحة غريبة عند سماعها كلمة (أختاه): يشرفني أن أكون أختك، فما سمعته عنك، ثم بعدما رأيتك جعلني أتمنى مصاحبتك.

رحمة: الأرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف، وأسأل الله أن يجمعنا على طاعته.

طرق شديد على باب البيت.. يدخل محمد أخو رحمة.

رحمة تسمع صوته.. تخرج سريعًا.. ماذا فعلوا بك يا محمد؟

عذّبوني لعنهم الله.. يكشف عن ظهره.. آثار التعذيب واضحة.. تدخل رحمة غرفة عمها لتأخذ مرهمًا لتدهن مكان الجروح.

شيماء: عذّبوه كالعادة، عذبهم الله.. لا تحزني يا رحمة؛ إن فرج الله قريب.

تخرج رحمة لأخيها.

شيماء: هذه دولتكم الديمقراطية.

عصمت: أرجوك يا شيماء اصبري؛ حتى لا تتعرف عليَّ رحمة، وأقسم لك: كل واحد من هؤلاء ليحاسبنَّ حسابًا عسيرًا.. هيا بنا نذهب؛ لأننا تأخّرنا، وسترين ما سأفعل غدًا.

* * *

عصمت: سأتركك الآن، ونتقابل فيما بعد.

شيماء: اخلعي النقاب، هل ستذهبين إلى قصر العسال هكذا؟ أم أعجبك النقاب؟

عصمت: أرجو أن يكون ما حدث اليوم سرًّا بيننا.

شيماء: تعالي ندخل هذا المسجد حتى تخلعي فيه ملابسك.

عصمت: ولكن كيف سأخرج من المسجد بشعري؟

شيماء: اتصلي بالمفتي يقول لك: حلال حلال حلال.

عصمت: ليس وقت ضحك الآن.. أنا سأتصرف.

* * *

عصمت تتصل بوزير الداخلية.. ما حكاية المنزل الذي تحاصرونه حتى لا يقيموا عزاء لميتهم.

الوزير: ليس عندي تفاصيل دقيقة.. سأرسل لسيادتك اللواء المحمدي يخبرك عن التفاصيل التي تريدينها.

تنتظر عصمت كأنها على مقلاة.. حتى يأتي اللواء.

عصمت: ما حكاية المنزل المحاصر الذي تمنعون أهله من عمل العزاء لميتهم؟

أُسقط في يد اللواء، ولم يعرف ما يقول؟ يتلجلج، ثم يتكلم بتردد، وكأن الكلام لا يستطيع الخروج.

عصمت: لم أفهم شيئًا من كلامك.. ما الحكاية بالضبط؟

اللواء: هذا البيت فيه مشكلات، والأمر بعيد عن الدولة.

عصمت: وإذا كان بعيدًا عن الدولة، فلم تضطهدونهم بهذا الشكل الفظيع؟!

اللواء: بصراحة، هم يسبّبون بعض المشكلات لأسرتكم الكريمة.

عصمت باستغراب: أسرتنا نحن! وما علاقتنا بهم؟ تقصد عمادًا؟

اللواء: السيدة والدة سيادتك.

وكأنه أصاب رأسها بحجر، أو كأن جبلاً اندكّ عليها: وما

علاقة والدتي بهذا المنزل؟

اللواء: سيادتك تعرفين الموضوع، وأرجو عدم إقحامي في مسائل عائلية.

عصمت: لا أعي ما تقول!!

اللواء: عمومًا أنا سأخبر سيادتك بما تريدين، سواء أكنت تعرفين التفاصيل أم بعضها، وأرجو عدم إقحامي في المشاكل الأسرية.

عصمت: تفضّل.. احكِ.

اللواء: سيادتك تعلمين أن المتوفَّى كان زوجَ أمك، وهي تخشى أن تصل المشاكل الأسرية إلى الإعلام.

تكاد عصمت يُغمى عليها مما تسمع، ولكنها تحاملت على نفسها حتى ترى نهاية الحكاية، التي حكايات ألف ليلة وليلة بجانبها لا شيء. ماذا تقصد بزوج أمي؟

اللواء: يا أفندم أنا محرج أقول: أبوك؛ لأني أعرف أنك تكرهينه بشدة؟

عصمت: من الذي أكرهه بشدة؟

اللواء: ولا يجوز على الميت إلا الرحمة، وهو أبوك رغم كل

شيء.

لو كان أحد مكانها لأصابه الجنون - قالت ذلك في نفسها - ومن أين عرفت أنني أكرهه؟

اللواء: كل المؤتمرات والحوارات الصحفية، واللقاءات مع سيادتك، تؤكد ذلك، ويكفي أنك غيّرت اسمك، وانتسبت للسيدة الفاضلة أمك؛ بل من شدة بُغضك، جعلت كل الوزراء ينتسبون لأمهاتهم، وفي طريقنا إلى التعميم على كل الشعب.

عصمت: أرجو أن لا يعلم أحد عن لقائنا هذا شيئًا.. اعتبره سرًّا.

اللواء: أوامرك يا أفندم.

تدور الدنيا بعصمت.. يمر شريط ذكرياتها أمام عينيها منذ أن أخبرتها أمه أن أباها قد مات، ومن ساعتها لم تره.

كان يكبر بغض أبيها في قلبها كلما كبر جسمها، وكلما سألت أمها عنه، ذكرت لها من صفاته ما يستنكف عنه الشيطان: فاحش الأخلاق، بذيء، مدمن مخدرات وخمر وزنا وفضائح، ومات في حضن جارتنا... إلخ.

كيف لم أسأل يومًا عنه؟ كان يأتيني في نومي ويقول: أنا أبوك

يا جاحدة، ألم يخطر ببالي لماذا أنا جاحدة؟! يا لي من غبية: ظلمت أقرب الناس إلي، إنني لا أستحق هذه الحياة: كل دوري فيها أن ينافقني من حولي وأرضي غروري.

أخذت تجلد نفسها وتحاسبها، ولا تعرف كيف تتصرف؟

مرَّ يوم وهي لا تستطيع القيام من السرير، وبدا عليها المرض، والشيطان يتلاعب بها، بين الانتحار، وقتل أمها، أو هما معًا.

لأول مرة تتذكر الله، وأحست أن لا ملجأ لها إلا الله.. قامت فتوضأت وصلَّت في خشوع، وأخذت تدعو الله أن يرحم والدها، وأن ينجيها مما هي فيه.

دخل عماد وهي تصلي، وبعد التسليم من الصلاة أخذت تدعو وتبكي، وتنهمر دموعها على خدَّيها.

كان موقفًا صادمًا لعماد؛ عصمت تصلّي! يا له من حدث جلل! وتبكي في الصلاة وكأنها من عابدات السلف.. تركها حتى انتهت.. ففوجئت بوجوده.

عصمت: منذ متى أنت هنا؟

عماد: ما لك يا عصمت؟

تنهار عصمت، ويغلبها البكاء والنحيب.

أخذت تحكي له كل شيء، ولأول مرة تعرف معنى الزوج، وأنه عضدها في الحياة، لا منافسها فيها.

عماد: أنا منذ أن تعرّفت عليك كان لا يعجبني طريقة حديثك عن أبيك، ولو تذكرين في مرة قلت لك: من المشاكل في المجتمع: كثرة الطلاق والخلع؛ فعند الطلاق يضيع الأولاد؛ وربما أرضع الأمهات أو الآباء أولادهن بغض الأب أو الأم، فيصير هناك تصدّع في بناء المجتمع.

عصمت: نعم.

عماد: لم أذكر لك ذلك إلا لألفت نظرك أن تتأكدي من الكلام الذي تصفين به أباك، وخاصة أن أمك خصومتها دمار، ولا تلوي على شيء، وعندها غرور لو وزِّع على أهل الدنيا لفاض.. عمومًا دعيني أتصرف، ولا تقلقي، واستريحي أنت.

عصمت: كيف أستريح وعمي وأولاده يُعذّبون بسببي؟

عماد: سينتهي كل شيء الآن.

يستدعي عماد سكرتيره: اتصل باللواء المحمدي يأتيني على الفور.

عماد للواء: احك لي القصة من أولها إلى آخرها.

أخذ اللواء يحكي له كل شيء.

عماد: من المسؤول عن هذا الموضوع؟

اللواء: ولد اسمه الكومي.. له علاقات بكل أجهزة الدولة، بحكم علاقته بالسيدة ليلى البدري؛ فهو يدها اليمنى، وهذا ما جعل له سلطات مطلقة.

عماد: اقبض عليه دون أن يدري أحد، وهات لي القصة من بداية تعرُّفه على ليلى إلى اليوم بالتفصيل، وبأسرع وقت.

اللواء: أوامرك يا أفندم.

بعد مرور عشر ساعات، كان ملف كبير فيه كل التفاصيل أمام عماد يقرؤه..ثم ذهب إلى عصمت، وأخذ يحكي لها القصة كاملة.

عماد: أبوك كان مأساة من مآسي البشر، وأمك لا أعلم ما وصفها؟!

أيصل البغض والتنكيل بالإنسان إلى هذه الدرجة؟!

إن الكومي كان يتفنّن بأوامر والدتك في تعذيب والدك.

تعرَّفتْ أمك على الكومي عندما استأجرته لضرب أبيك، أو قتله إن استدعى الأمر.. ضربه حتى أصابه بالشلل، وأعطته خمسة آلاف جنيه، ولم يشفع له الشلل أن ترحمه، ولولا أخوه وأبناء أخيه،

لتسوَّل في الشوارع.

بعد أن تزوجنا، صارت مهمة الكومي أن لا يصل إليك خبر أن أباك حي، فنكّل به، وبكل من حوله، وعندما توفّي أبوك – رحمه الله – كان كل ما حدث حتى لا يصل أي خبر لأي أحد، فيصل للإعلام أو لك.

عصمت يأخذها البكاء الشديد والدموع المنهمرة: كيف أتصرف مع هذه الـ.....؟

عماد: كما تشائين.

عصمت: سأذهب أولاً إلى منزل عمي، وأعتذر لهم.

عماد: ولكن راعي أنهم تألَّموا بسببك كثيرًا، وربما كانت ردة فعلهم قاسية.

عصمت: أعي ذلك جيدًا.

* * *

تخرج عصمت متخفية، تشتري إسدالاً ونقابًا.. تلبسهما.. تذهب إلى منزل عمها.. لا تجد أحدًا من الرجال الذين كانوا محاصرين البيت.. تطرق على الباب.. يفتح لها عمها.. تشعر بحنين

لدرجة أنها تتمنى أن تعانقه كأبيها.

عمها: تفضلي يا بنتي.. رحمة بالداخل.

تطرق على الباب.. تدخل على رحمة في غرفة عمها، ممسكة بأوراقه ورسائله على سريره تقرأ فيها، ودموعها على خدَّيها.

كاد قلب عصمت ينفطر ودموعها تنهمر، بيد أنها تماسكت.

عصمت: كيف حالك يا أختاه؟

رحمة: الحمد لله.. جزاك الله خيرًا على اهتمامك، ومعذرة أنا نقصّر في الترحيب بك.

عصمت: يعلم الله أنك قريبة من قلبي قبل أن أراك، ومنذ أن سمعت عنك.

رحمة: معذرة يا أختاه لم أتعرف على اسمك.

عصمت: ألم تلاحظي الشبه بيني وبينك.

رحمة: نعم.

عصمت: أنا قريبتك.

رحمة: هذا شرف لي.. للأسف كل أقاربنا ابتعدوا عنا؛ حتى لا نسبب لهم مشاكل.

عصمت: ولكن هناك من لا يعلم أنكم أقرباؤه.

رحمة: من أولئك؟

عصمت: أنا كنت حتى الأسبوع الماضي لا أعلم أنك قريبتي، ولم أعلم إلا عندما أتيت إلى هنا.

رحمة: معذرة، نسيت أن أعمل لك مشروبًا.. هل تشربين شايًا؟

عصمت: لا عليك، دعينا نكمل حديثنا.

رحمة: الحديث سيطول.. سأعمل شايًا ثم نكمل.

تجلس عصمت وحدها في غرفة أبيها، وتتدافع المشاعر بين حنين وحزن وأسف واعتذار.. تخلع الإسدال والنقاب، وتجلس بملابسها العادية، حتى إذا دخلت رحمة عرفتها فأراحتها من المقدّمات.

تدخل رحمة فتفاجأ بها على هذه الحالة.

رحمة: من أنت؟

عصمت: أنا ابنة عمك.

رحمة لم تتمالك نفسها من وقع الصدمة: لولا أنه ليس من أخلاقي، لطردتك؛ ليس لأنك سبب شقائي وشقاء أسرتي؛ بل

لجحودك لأحب الناس إلي.

عصمت: رحمة، أنا لم أكن أعرف شيئًا البتة، وأرجو أن تسمعيني.. أنا لم أكن أعرف شيئًا عن أبي.. كان ما أعرفه أني يتيمة من طفولتي.

رحمة: وهل اليتيمة تكره أباها، وتجاهر ببغضه، ولا تترك حوارًا إلا وتتبرأ منه؛ لدرجة أنها تنتسب لأمها؛ بل تضغط بكل ما أعطاها الله على الناس لينتسبوا لأمهاتهم؟! هل تدرين كم كنا نعاني لقطع الطريق عن أي معلومة عنك يمكن أن تصل لعمي؛ حتى لا ينتهي.

عصمت: أنت محقَّة؛ ولكن أمي كانت تسقيني وتطعمني بغض أبي، وتَشَرّبت صورة شيطانية له منذ صغري.. تخيلي أنك مكاني.

رحمة: أي إنسان من البشر – بل الحيوان – يحنّ لوالديه، وأي إنسان مكانك كان سيسأل عن أقارب أبيه على الأقل، أو يعرف نسبه.

عصمت: أمي لم تكن تجعل لي منفذًا لفعل ذلك؛ حتى إنني رأيت أبي – رحمه الله – يأتيني في أحلامي ويقول: أنا أبوك يا جاحدة، وحاولتْ بكل ما أوتيت من دهاء أن تصرفني عن التفكير في هذا الحلم.

رحمة: سبحان الله! كان دائمًا يقول: بنتي الجاحدة.

عصمت: أريد الحديث مع عمي.

رحمة: ليس الآن.. دعيني أقدّم لهم؛ لأنهم لن يتقبلوك بسهولة بعد كل ما رأوه بسببك.

عصمت: ممكن تعطيني رسائل والدي لأقرأها.

رحمة: لن تتحملي.

عصمت: أرجوك يا رحمة.

رحمة: خذيها وائتي بعد يومين بإذن الله؛ حتى أكون قد مهّدت لهم.

عصمت: شكرًا جزيلاً؛ صدق من سمّاك رحمة.

* * *

ظلّت عصمت طوال نهارها وليلها تقرأ في رسائل والدها لها ومذكراته.. تقرأ وتبكي، وتغرق في بحر لا قاع له من التفكير والحزن والأسى والندم.. كانت الرسائل والمذكرات فيها كل شيء عن حياته.

تقرأ في إحداها:

«أكتب إليك يا بنيّتي، وأعلم أن رسالتي لن تصل إليك؛ ولكن ربما وصلت، ألم تُلق أم موسى ولدها في اليم وحفظه الله؟! فإن وصول رسالتي إليك غير مستحيل، هل نسيت عندما كنت أعود يوميًّا لك بما تحبين وتقابلينني بالأحضان؟ هل نسيت عندما كنت تتعلقين بي وأنا ذاهب للصلاة، فآخذك معي، وأجلسك إلى جواري، وربما أحدثتِ ضجيجًا في المسجد يحرجني أمام الناس؟ كم مرةٍ يا عصمت قطعت أوراقًا مهمة كنت أتعب في تجميع معلوماتها في رحلة نيل الماجستير.....».

تسبح عصمت بفكرها، وتحاول تذكّر هذه الأحداث.. تتذكرها من بعيد، ولكن لا تعرف هل هو تذكر؟ أم عقلها الباطن يجعل الخيال حقيقة؟ ثم يأخذها البكاء.. هل يعقل أني لا أعلم ما الشهادات التي حصل عليها والدي؟ تحصل على جواب سؤالها في رسالة:

«حبيبتي عصمت، هل تعلمين أن أمك أرسلت إليَّ البلطجية ليقتلوني أو يصيبوني بالشلل في يوم حصولي على الماجستير.. كان تقديري امتياز مع مرتبة الشرف، وذلك تقديري في بكالوريوس التجارة أيضًا.. قتلت فرحتي، وقتلت شبابي، وجعلتني عاجزًا،

وحرمتني منك يا ابنتي.. أرأيت رجلاً في التاريخ شقي بزوجته مثل أبيك؟ ولكن لابد أن أتحمل نتيجة أفعالي؛ فكل من حولي وحولها حذّروني من هذه الزيجة؛ ولكن كنت كأنني مسحور؛ رغم كل العيوب التي رأيتها بعيني، تزوجتها، مع أنها لا جمال ولا أنوثة، ولا دين ولا أخلاق، ومع ذلك كبر واستكبار وعناد.... لماذا تزوجتها إذن؟ أعترف أني أستحق ما حدث لي....».

تقرأ في رسالة أخرى:

«تصوّري يا عصمت أن سبب الطلاق أنني ناقشتها في لبس الحجاب، فجعلت مجرد مناقشة زوجها لها في أمر كهذا استعبادًا لها، وقتلاً لشخصيتها، وردَّة إلى عصر الحريم.. كانت حياتنا الزوجية تقوم على أساس المناكفة والندية والصراع، لا حب.. لا تفاهم.. ولم أجد حلاً معها إلا بالقرب من الله، فأخذت أعظها لتصلّي، ولتعلم أن لي حقوقًا يجب عليها أن تؤديها، ولكن قاتل الله الكبر والغرور..........».

انتهت عصمت من قراءة الرسائل والمذكرات كاملة، وعرفت أدق التفاصيل في حياة أبيها، وعرفت ما لم تكن تعرفه عن أمها وجبروتها، وعرفت دور رحمة مع أبيها، وأنها كانت له نعم البنت،

ولكن كيف ستتصرف مع أمها؟

* * *

عادت السيدة ليلى من السفر، بعد حضور أحد مؤتمرات حقوق المرأة، عرضت فيه السيدة ليلى التجربة المصرية وريادتها، وأنها على وشك تطبيق كل الأجندة الخفيَّة الخاصة بحقوق المرأة، بما فيها حق الشذوذ، وزواج الشواذ، ومساواة المرأة بالرجل في الميراث، ومنع تعدد الزوجات، والسماح بتعدد العشيقات، وكل الأمور التي تصادم الشريعة الإسلامية.

سألت عن ابنتها عصمت، فأخبروها أنها مريضة في غرفتها.. دخلت عليها: ما لك يا عصمت؟

عصمت: مرهقة.

ليلى: أعرف أنك تبذلين مجهودًا خرافيًّا، ولكن هانت، لم يبق إلا الخطوة الأخيرة، ولو كنت معي ورأيت نجاح المؤتمر، وإقرار الجميع بريادة تجربتنا، لفرحتِ كثيرًا، وهناك دعم هائل سيأتينا بمجرد تطبيق الخطوة الأخيرة.

المهم المطلوب منا الآن إقرار أجندة قوانين الطفل والمرأة في

الدورة القادمة، وقد أعددت الإعلاميين والمثقفين للمرحلة الأخيرة، وتكسير عظام كل من يقف أمام هذه الأجندة.

تستمع عصمت للكلام وكأنها تتلقى لكمات لا كلمات؛ فعصمت اليوم غير عصمت الأمس: وهل تظنين أن الناس ستصمت على إقرار زواج المثليين أو الشواذ، ومعاقبة الأب على ضرب ولده، وعدم ولاية الأب على أبنائه...إلخ.

ليلى: لا تخافي؛ الإعلام سيشيطن من يخالفنا، والأمن سيتكفل بالمشاغبين.

عصمت في نفسها: هي نفس خطة تحطيم أبي.. ثم تسألها: ولكن هناك سؤال في نفسي: هل نحن نصلح المجتمع أو نفسده؟

ليلى: بعد كل هذا تسألين هذا السؤال.. ماذا حدث لك يا عصمت؟! نحن نقضي على تخلُّف المجتمعات، وعلى سطوة الرجل وجبروته، واستضعافه للمرأة.

عصمت: ولكن هناك من النساء من تفوق في جبروتها كل طغاة العالم.

ليلى: من قال لك ذلك؟ المرأة الرقيقة، ذات المشاعر المرهفة، التي تجاهد في الحياة من أجل أخذ حقوقها من هؤلاء الرجال –

يقال عنها ذلك؟! أرى شرًّا قد ألَمَّ بك يا عصمت.

عصمت: ولكن ترين أن الشذوذ الجنسي وزواج الشواذ من حقوق المرأة؟

ليلى: يا بنتي هذه أمور متفق عليها في العالم الآن، ونحن متخلفون في هذا الأمر جدًّا، ولو طبِّق هذا الأمر سيأتينا مليارات الدولارات كمنح ومعونات للحكومة، ولمنظمات المرأة، وهذا الأمر لا يخفى عليك؛ فلولا هذه المعونات لانهارت الحكومة وتأزَّم الاقتصاد.

عصمت: أريدك أن تحكي لي عن أبي.. اشتقت إليه كثيرًا، وصرتُ أحنُّ إليه جدًّا.

تثور ليلى على ابنتها: وما الذي ذكّرك بهذا الكلب الآن؟

عصمت: إنه أبي، ولا أسمح لك أن تسبِّيه.

ليلى: تشتد ثورتها.. ومنذ متى يحزنك هذا يا حبيبتي؟! ألم تكوني تسبّينه معي؟!

عصمت: ألم يكفك سبَّه طوال حياتي؟!

ليلى تخفض من نبرتها: ما لك يا عصمت؟ هناك شيء ما حدث وأنا مسافرة.

عصمت: لا شيء، ولكن كنت أقرأ رواية مأساوية أثّرت في.

ليلى: أي رواية هذه؟

عصمت: رواية جبروت امرأة.

ليلى: بالتأكيد كاتبها رجل يكره النساء، وماذا حكى فيها؟

عصمت: يحكي عن زوجة البطل، تستأجر بلطجية لضرب زوجها ويصيبونه بالشلل - تنظر عصمت لأمها، وترى القلق باديًا على وجهها – ومتى؟ في يوم عرسه.

ليلى: كان يريد أن يتزوج عليها.. يستحق ما حدث له.

عصمت: لا.. أقصد عرسه التعليمي، يوم حصوله على الماجستير مع مرتبة الشرف.

ليلى تشك في الأمر: وماذا كان اسمه في الرواية؟

عصمت: جلال.

تأكدت ليلى أن شيئًا ما وصل إليها، فانهارت جالسةً، وغطّت وجهها بيديها.. بينما عصمت تكمل:

- تخيّلي أن هذه المرأة منعت العزاء عن زوجها أو طليقها، ولم يشفع له عندها موته.

يدخل عماد: كيف حالك يا «طنط»؟

عصمت: ماذا فعلتَ في الكومي؟

عماد: في الحفظ والصون.. سيحاسب عن كل ما فعل في حماي، ولن أرحمه.

ليلى: أخذتها نوبة بكاء هستيري.. تركاها حتى هدأت.

عماد: أريد أن أسألك سؤالاً يا طنط: لماذا فعلت كل هذا؟ عمومًا.. عم عصمت وأولاده يريدون حقَّهم، والكومي اعترف بكل شيء، ولن أتركه حتى يحكم عليه بالمؤبَّد على الأقل.

ليلى: يا عصمت، بعد كل هذا العمر تريدين إدخالي السجن.

عصمت: أنا ليس لي شأن.. الموضوع كله مع عماد.

ليلى: لو مسّني أحد بسوء، سأهدم المعبد على الجميع.

عماد: دعك من هذا الكلام الكبير.. اليوم كل شيء ظهر على حقيقته، ولا بد من الحساب ورد الحقوق، وما فعلتِه عدة جرائم، لا جريمة واحدة.

ليلى: أنا يقال لي هذا الكلام.. أنا مجرمة!

عماد: دعك من هذا الكبر والغرور الذي لا يعود ضرره عليك فقط.. كلمة «مجرمة» وصف لا يليق بك.. تذكّري ما فعلت مع من كان زوجك؛ أنت لم يجد البشر كلمة تليق بك، ولن يجدوا،

وستلقين جزاءك.

تدخل مجموعة من الرجال للقبض عليها.. تصرخ وتصيح: أنا لو مسني شر، لا تحسب أن الأمر سهل وسيمرّ، ستدمر البلد، وتمنع المعونات عن الحكومة، وسيقضى على استثماراتك...و...

عماد: اطمئني؛ الغرب لا يهتم بمن يسقط من العملاء، يلقونه في أقرب سلة للمهملات.

تتجه إلى ابنتها تستعطفها، فتشيح بوجهها عنها.

* * *

السيرة الذاتية

- شاعر وكاتب إسلامي.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.
- مهندس اتصالات وإلكترونيات، عضو نقابة المهندسين المصرية.
- المؤلفات: ديوان شعر (تحت الطبع) – كتاب في العروض وشرح دوائر الخليل بن أحمد الفراهيدي (تحت الطبع) – كتاب «علاقة المعنى بالإعراب» (تحت الطبع) - ضبط وتحقيق منظومة (عقود الجمان) في البلاغة للسيوطي (تحت الطبع)، ولي دراسات نحوية وأدبية ونقدية، بالإضافة لمقالات وأشعار منشورة على الشبكة العنكبوتية، على مواقع (الألوكة – مجلة الزيتونة – دنيا الرأي.......إلخ).